زامر الحيّ

عنوان الكتاب : زامر الحيّ

المؤلف : محمُود تيمُور

اختيار: مالك صقور

تقديم : فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/149/ كانون الأول

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني:mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

محمُود تيمُور

زامر الحيّ

اختيار : مالك صقور

تقديم : فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (149)

التقديم

فلك حصرية

محمود تيمور هو ابن العلاَّمة أحمد تيمور، وأخو الأديب محمد تيمور وعمته عائشة التيمورية، وقد بلغ هذا الأديب الكبير مكانة أدبية مرموقة يقول فيه الأديب طه حسين "عميد الأدب العربي":

/"فإذا قيل إنك أديب مصري ففي ذلك غيض منك وإذا قيل إنك أديب عربي، ففي ذلك تقصير في ذاتك، وإنك لتوفي حقك إذا قيل إنك أديب عالمي بأدق معاني الكلمة، وأوسعها، وأعمقها، ولا أكاد أُصدِّق أن كاتباً مصرياً ـ لم يكن سأنه ـ قد وصل إلى الجماهير المثقفة، وغير المثقفة، كما وصلت أنت إليها؛ فلا تكاد تكتب، ولا يكاد الناس يسمعون بعض ما تكتب حتى يصل إلى قلوبهم، كما يصل الفاتح إلى المدينة التي يقهرها، فيستأثر بها الاستئثار كلَّه"/

ولـد الأديـب محمـود تيمـور في "حزيـران 1894" في قريـة "درب السـعادة" بالقـاهرة، وقـد قضـى طفولتـه في هـذه القريـة، واختـلط بأهلـها، وجالسـهم واسـتمع إلى أحـاديثهم، ولعـب مـع أطفالهم، لتنتقـل أسـرته بعـد ذلـك إلى ضـاحية "عـين شمـس" في الريف، لتعـود بعـدها إلى حـي "الحلميـة" بالقـاهرة، ذلـك الحـي الذي عـرف عـن سـاكنيه إنهـم مـن العلمـاء، وأصـحاب الجـاه، وكبـار المـوظفين، وقـد اكسـبته هـذه الحيـاة الـتي قضـاها متـنقلاً بـين البيئـات المتنوعـة مـا بـين الريـف والمدينـة، حسَّـاً بالوطنية، وقرَّبتـه مـن الحيـاة الشـعبية، لتُشـكِّل هـذه الخـبرة، فيما بعـد انطلاقـة كـبيرة في أدبـه ومعينـاً نهـل منـه مـا اسـتطاع ومشـكلاً لنفسه ينبوعاً يغذي منه مؤلفاته، وكتاباته.

التحــق محمــود تيمــور بالمــدارس المصــرية في المرحلــة الابتدائيـة، ومـن ثـم التحـق بمدرسـة الزراعـة العليـا في المرحلـة الثانويـة، وقـد اضـطره مـرض التيفوئيـد الـذي فاجـأه في بدايـة دراسـته في هـذه المدرسـة الزراعيـة العليـا إلى الانقطـاع عـن الدراسة، ليجد في فترة مرضه ما يشغل به وقت فراغه، متخذاً مـن القـراءة، والمطالعـة وسـيلة يقضـي مـن خلالهـا علـى الملـل والفراغ، وما يمكن أن يعانيه من الآلام وهدر الوقت، وبالفعل تفرَّغ لدراسة الأدب العربي، والآداب العالمية، شجعه علـى ذلـك

والده وشقيقه محمد تيمور الذي وجهه بدوره وشجعه على قراءة "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي وقصة "زينة" للكاتب هيكل، إضافة إلى الكتب والروايات التي قرأها للكثير من الأدباء والكتَّاب الأجانب، وقد تأثر محمود تيمور بالأديب الفرنسي "موباسان" والأديبين الروسيين "تشيكوف وتورجنيف.

لقد كان شقيقه "محمد تيمور" خير مرشد بما يسريه وبما لديه من ثقافة واسعة، وموهبة أدبية رفيعة، ليتاثر به محمود ويتبع مذهبه الواقعي في الكتابة القصصية، حيث ظهر واضحاً في مجموعته القصصية الأولى "ما تراه العين" ليعجب بها محمود، إعجاباً كبيراً دفعه إلى تقليدها، والتأليف على غرارها؛ فكتب باكورته في العام 1915 ـ خرشو "إلا أنه لم يلبث أن صدم برحيل شقيقه محمد، وهو في ريعان الشباب، مما أصابه بالحزن الشديد، وانهيار آماله، وفقدان حماسه، واستولى عليه اليأس والقنوط، فانزوى حزيناً مستسلماً للأسى والإحباط، إلا أن الأيام ـ وهي الكفيلة باندمال الجرح ـ جعلته يقبل من جديد على الحياة، وينفض عن نفسه اليأس والفشل والقنوط.

ويقف محمود من جديد ويتابع طريق الأدب مهتدياً بهدى شقيقه الراحل، ومقبلاً على الكتابة بنشاط وهمة واندفاع وهو الذي ورث عن أبيه "أحمد تيمور باشا" أحد أبرز أعلام عصره ومن أقطاب الفكر والأدب المعدودين، وله العديد من المؤلفات النفيسة، والمصنفات الفريدة التي تكشف عن موسوعية نادرة، وقدرة تراثية لا يشق لها غبار، ورث عنه محمود العديد من الملكات والصفات وقد كان مغرماً بالأدب واللغة، شغوفاً بالقراءة والبحث والاطلاع محباً للكتابة والتأليف، وبالمقابل فقد عني أبوه ـ منذ سن مبكرة ـ بتوجيهه إلى القراءة والاطلاع، وتنشئته على حب فنون الأدب واللغة فأقبل الابن على مكتبة أبيه العامرة بنهم شديد، ينهل منها، ويَعبُّ من ذخائرها، ويروي عطشه من ينبوعها، ويجني من مجانيها.

كان لمحمود شغف خاص بالمنفلوطي، الذي غرس فيه نزعته الرومانسية، كما تأثر بعدد من الشعراء، خاصة شعراء المهجر وفي مقدمتهم "جبران خليل جبران" الذي كان لكتابه "الأجنحة المتكسرة" بنزعتها لرومانسية الرمزية، تأثير خاص في وجدانه.

لم يواجه محمود تيمور فقدان شقيقه محمد فقط ليشكل ذلك نقطة يأس وحزن في حياته، ليأتي فقدان ولده ولما يتجاوز العشرين عاماً، ويجعله يعيش مرة أخرى حالة من الحزن والألم، وهو المرتبط بأسرته ارتباطاً كبيراً، ليثمر الألم والحزن أدباً غزيراً، وانتاجاً راقياً خالداً.

نشر تيمور العديد من القصص والروايات منها: مكتوب على الجبين ـ قلب غانية ـ وقال الراوي ـ وإلى اللقاء أيها الحبُّ ـ إلى جانب أعماله المسرحية مثل: عروس النيل ـ قنابل ـ حواء الخالدة ـ اليوم خمر كذب في كذب، إضافة إلى أعمال أخرى.

كما حرص على حضور الندوات الأدبية والتي كانت تقام في منزل والده، وكانت هذه الندوات تضم العديد من الأدباء، والعلماء والشعراء مثل الشيخ محمد عبده، والشيخ الشنقيطي، والشاعر محمود سامي البارودي، وغيرهم الكثير من رجالات الأدب، والعلماء والشعراء، وقد كانت مجموعته القصصية "الشيخ جمعة" باكورة نتاجه الأدبي والتي كان قد كتبها باللهجة العامية ثم قام بعد ذلك بتعديلها إلى اللغة الفصحى لأنها الأكثر انتشاراً، كما قام بتعديل بعض عناوين

القصص فيها مثل قصة "أبو علي عامل الأرتيست" والتي عدَّل عنوانها إلى "أبو علي الفنان". أما مجموعته القصصية الثانية فكانت في العام 1926 بعنوان "عم متولي" لتليها "سيد عبيط" ثم "حواء الخالدة" والعديد من مؤلفاته التي بلغت ستين كتاباً، منها القصة والرواية والمسرحية والدراسات اللغوية وغيرها من الفنون التي برع فيها محمود تيمور، وقد تمت ترجمة أعماله إلى عدة لغات أجنبية مثل الإنكليزية والفرنسية والألمانية والروسية، كما حاز على الكثير من الجوائز والأوسمة منها:

- في 5 نيسان 1947 احتفل أعضاء مجمع الخالدين بدار الجمعية الجغرافية بتتويج محمود تيمور احتفالاً بإنتاجه القصصي باللغة العربية الفصحى، ثم تم اختياره من قبل أعضاء المجمع ليصبح عضواً في المجمع عام 1949م.
- في عام 1950 حصل على جائزة الأدب عن كتابيه: إحسان لله ـ كل عام وأنتم بخير.
- في عام 1951 حصل على جائزة أحسن كتاب شرقي ترجم إلى الفرنسية.
- 1962 حصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب.

- 1963 تمَّ منحه وسام العلوم والفنون تكريماً لأدبه وفنه.

في 1962 تمَّ اختياره من قبل المجمع العراقي، ، والمجمع اللغوي المجري عضواً فيهما ، كما قامت كل من مدرسة اللغات في روسيا "موسكو" وجامعة بودابست بالمجر بالاحتفال بمولده في العام نفسه.

وقد شارك تيمور في العديد من المؤتمرات الأدبية:

ـــ مؤتمر الأدباء 1954 ببيروت، ومؤتمر القلم 1954 ببيروت.

ـــ مؤتمر الدراسات الإسلامية في جامعة بشاور بباكستان، ومؤتمر الأدباء في دمشق.

ـ نال إنتاجه القصصي جائزة مجمع اللغة العربية بمصر 1947، وما لبث أن عين عضواً فيه 1949.

والحقيقة أن هذا الأديب والمسرحي والقاص حظي باهتمام النقاد وتقديرهم، كما نال حظوة بين أدباء عصره، وفي النوادي الأدبية كافة، والمحافل الهامة إضافة إلى اهتمام خاص من جامعات مصر والوطن العربي وأوروبا وأميركا لتكون أعماله من ضمن المواد التي تدرَّس في بلدة الأم والعالم.

في الخامس والعشرين من آب 1973 توفى محمود أحمد تيمور أحد أهم رواد فن القصة العربية القصيرة الذين نهضوا بهذا الفن، وإحدى الشخصيات الفذة، التي ساهمت في إعلاء شأن النهضة الفكرية والأدبية في تاريخنا المعاصر، والذي خلَّف مكتبة ضخمة وهامة تسمى /التيمورية/ والتي تعدُّ اليوم ذخيرة للباحثين حتى الآن، بدار الكتب المصرية، لما تحويه من الكتب والمخطوطات من كتبه اللغوية والنقدية، توفى محمود في مدينة لوزان بسويسرا التي أحبها في شبابه، وسافر إليها ليقضي فيها ـ وقتها ـ سنتين من عمره.

وقد نقل جثمانه إلى القاهرة ليدفن هناك وقد ناهز الـ 79 عاماً. هذا وقد تجاوزت مؤلفاته الستين منها:

ـ المخبأ رقم "13" مسرحية كوميدية من ثلاثة فصول.

ـ شفاه غليظة ـ قصص قصيرة.

ـ نداء المجهول.

ـ اتجاهات في السنين المئة الأخيرة.

ـ اتجاهات الأدب العربي.

ـ إحسان الله وقصص أخرى.

ـ الوثبة الأولى.

ـ حواء الخالدة.

ـ سلوى في مهبِّ الريح.

ـ شمس وليل.

ـ مسرحية سهاد.

ـ معبود من طين.

ـ المصابيح الزرق.

ـ النبي الإنسان.. ومقالات أخرى.

ـ دنيا جديدة.

هذا إضافة إلى ما كتبه في "أدب الرحلات كأبي الهول يطير 1944، وجزيرة الحب 1963 وغيرها، وقد رأى هذا الأديب الكبير أن من أهم الخصائص التي يجب على الأديب أن يتحلى بها ـ من وجهة نظره بالطبع.

ـ نفاذ البصيرة.

ـ رقة المشاعر والإحساس وتذوق الجمال.

ـ يقظة الوجدان.

ـ صفاء الروح.

ـ التحليٍّ بالنزعة الإنسانية.

على كلٍ يبقى اختيارنا لهذا الكتاب الذي بين أيديكم "زامر الحي" هدفنا المنشود "ورغبتنا في الاطلاع على بعض الجوانب الأدبية، والطريقة التي اعتمدها أديبنا الكبير في تقديم قصصه وفق لغة رشيقة متفتحة كما البراعم وسلسلة، متدفقة، متناغمة، شائقة تشير بحق إلى جدارته بأن يكون ـ حقيقة وفكرة ومكانة ـ شيخ القصة العربية، وأحد أركانها وأعمدتها إذ تطالعنا قصته الأولى "زامر الحي" "بنفحات جذب تأخذنا إلى عالمه القصصي الجميل، والهادئ، والممتع، فيأسرنا القصُّ المتناغم، وتشدنا الأحداث المتدفقة والسريعة كما الينبوع، وتشوقنا شخصية ذلك الزمار الذي يطل علينا بين الفينة والأخرى مذكراً بأحداث عاشه، وجرت معه، وتورطه بعلاقة مشبوهة مع زوجة أخيه الشيخ لتكرَّ السبحة، ونصل إلى النهاية في القصة المروية ونحن أكثر تعطشاً لمعرفة المزيد، ليس بالنسبة لهذا الزامر وإنما بالنسبة للقصص الأخرى التي تناولها محمود تيمور بشفافية وحساسية وتدفق الأديب المتمكن والحاضر تتركك مع "زامر الحي" وكلنا أمل أن نكون قد وفقنا في اختياراتنا هذه من باب ترك النوافذ مشرعة لمعرفة أدباء كانوا رواد حضارة، ورجالات فكر

وتنوير، وأعمدة حضور أدبي راق وقص سردي مفيد وشائق، وسلاسة متماوجة مع بقية القصص التي ضمتها هذه المجموعة القصصية بين دفتيها:

"مظاهرة ـ إلى السارق ـ فاته القطار ـ ست الكل ـ الأمل المنشود".

متخذاً من الواقع قصصاً ينهل منها، ومن ثم يعيد سلسبيله شراباً ممتزجاً بالتجربة والإحساس والخبرة والفنية الأدبية المتميزة.

زامر الحي...

كنت وأنا في أوج الصبا أسكن حيَّ "درب السعادة"، ذلك الحي العتيق الذي تتزاحم دوره، ويتضايق طريقه، حتى لكأن الدور على جانبيه توشك أن تتعانق...

ولم يكن رواد هذا الحي كلهم من سكانه، فمن بين أهليه طوائف من الناس تختلف إليه طرفي النهار وبعض الليل، لا يكادون ينقطعون عنه في يوم، ولا يخفى عليهم من سكانه أحد، أولئك هم الباعة الجوّالون، والعفاة من طلاب الصدقات، وغيرهم من المرتزقة بفنون الملاهي وألوان التسلية وضروب الإضحاك والتفكيه.

وقبيل الصيف، أظلتني أيام الامتحان، فألزمتني الدار أستذكر وأستوعب، فإذا ثقلت علي الوطأة، ودار بي رأسي، خرجت إلى الباب أتخذ به مقعداً يشهدني مواكب الطريق.

وفيما أنا جالس ذات يوم، صافحتْ سمعي رنات لحن حنون تبعثها صفارة من مكان قريب، وما برحت هذه الرنات الشجية تتوارد علي مستبينة وضّاحة، حتى تجلى بها زامر للحيّ لم يكن لي به عهد.

وجه ضامر عليه سماحة، تزينه لحية خفيفة كساها الخضاب، وزيّ على سذاجته بادي النظافة رائق الهندام، ومشية وادعة مسترخية تتطلع فيها أنظار الرجل إلى السماء، كأنها تستملي منها ما يستوى عليه النغم من إيقاع.

وراعني من لحن ذلك الناي أنه كان حزين النبرة، ينبض باللوعة، وكأنه ينطوي على سر حبيس يحاول أن يصونه، ولكن السر يأبى إلا أن يتسلل في حنايا النغم، كأنما هو نفثة مصدور.

صادف هذا اللحن من نفسي هوى، بل مسّ من قلبي الشغاف، فجعلت أحرص على الجلوس ساعة الأصيل، أرتقب صاحب الناي في موعده المألوف، فإذا مر بي الصوت، وغاب عن سمعي الصدى، أحسست بروحي تتبعه، هائمة معه.

وعلى مر الأصائل تم التعارف بيني وبين شيخ الناي، أستوقفه بعض وقت، وأدعوه إلى الجلوس بجانبي في الأحايين.

وكان كلانا يأنس بصاحبه، يجاذبه ألوان الأحاديث... أما هو فلا تفرغ له جعبة من الطرائف والنوادر والحكايات، يحسن كيف يرويها خلابة الوصف، شائقة العرض. وأما أنا فلا أمل سؤاله في شأنه: كيف كانت أطوار حياته، وأية آفاق تقاذفته؟ فيجيبني إجابة المقلّ الكتوم، يضن بالإفاضة، ويتحرز من التصريح.

ومما كنت التزمته في هذه الأيام التي أتأهب فيها للامتحان أن أؤدي الفرائض في أوقاتها لا أتهاون، وكان على مقربة من دارنا مسجد صغير أقصده طالباً صلاة الجماعة، وحضر وقت المغرب وأنا بالباب أتحدث إلى شيخ الناي، فدعوته معي إلى المسجد، فاشرأب تائه النظر في كبد السماء، وهو يقول مجمجماً:

أعفني...

ثم لملم نفسه يهم بالمضي عني، وهو يقول:

قم لصلاتك... إني ذاهب في سبيلي!

وهرول في مشيته تخفيه طيات الطريق، فوقع تصرفه من نفسي موقع الغرابة، واستربت بأمره، ولكني شغلت عنه بإقامة الصلاة.

وفي أمسية من الأماسي، قفلت من المسجد بعد أداء فريضة المغرب إلى الدار، فلمحت شيخ الناي يحوم حول الباب كأنه يتفقدني، فأخذت بكتفه أبادره بقولي:

أنت هنا؟... أطال انتظارك إياي؟

ـ حضرت منذ قليل، وأطلقت صوت الناي يدعوك.

ـ كنت في المسجد... لماذا لا أصادفك فيه؟

فوجم الرجل، واكفهر وجهه، ثم رجفت شفتاه دون كلام... فحدقت إليه أقول:

ماذا يقعد بك عن المسجد؟

ـ المسجد؟ المسجد؟

واستبانت الرعشة في صوته وهو يقول:

إنما الأطهار من عباد الله هم الذين يؤمّون بيوت الله.

وما عتم أن استدار عني ينفتل ماضياً، وهو يلوح لي مودعاً بيده. فانقبضت نفسي مما رأيت، وبلغت بي الحيرة في شأن الرجل كبير مبلغ، وأقسمت لأعرفن من جلية أمره ما يخفي.

ما بال صاحب الناي يتحدث عن الأطهار كأنهم من طينة غير طينته، وكأنهم على شاكلة غير شاكلته؟ ومن الأطهار إن لم يكن من بينهم هذا الرجل الذي تنطق سماته وقسماته بالطيبة والصلاح؟ ومن أولى بالصلاة من ذلك الذي يأكل لقمته من كسب حلال، في عفة نفس، وشرف سعي، لا يشرك الناس في نقائص الناس؟

ولبث صاحب الناي على حاله فترة من الزمن، وهو لغز عصيّ يستغلق علي، وكأنما زادني هذا الإبهام الذي يكتنفه إقبالاً عليه، وتعلقاً به. ولكني مع ذلك تهيبت أن أقتحم عليه سره، خشية أن يضيق بي، فينفر مني.

وتواصل الود بيننا... أسبغ عليه من عطف ولطف، وأبثه الحديث في خاصة أمري، وأطلب مشورته فيما يساورني من مشكلات دنياي. وهو يمحضني النصح، ويقدر ثقتي به، ويكبر ما أستودعه من سري، حتى شرع يرفع الكلفة بينه وبيني.

وكان في الحين بعد الحين يسترسل في إنشاد بعض الأهازيج الريفية التي تنطوي فيها لواعج الحب وتباريح الهيام.

وكـأن هـذه الأناشـيد تترجـم بـالكلام مـا كـان النـاي يرسله من أنغام... فإذا فرغ من إنشاده، بعث مـن أعمـاق صـدره تنهدات حارّة، وأفاض في حديث عـاطفي مشـبوب، يقـص عليّ مـا يلقـاه العاشـقون مـن ضـروب الوجـد والحـنين، ومـا يعـترض طريقهم من عقبات وأشواك، وأنا أخالسه نظـرات تستشـف مـا وراء تلك النفس المعذبة الحيرى.

وبينما كنت يوماً جالساً إليه، وقد ترنم بالغزل، وقص عليّ ما قص من مصارع العشاق، جذبت يده إليّ ملاطفاً، وأنـا أحملق فيه، وعلى فمي ابتسامة، وقلت مباغتاً في صوت رفيق:

يمينـاً لقـد كانـت تلـك عصـفورة... عصـفورة طـارت مـن عشك!

فرعـدت يـد الرجـل في يـدي، وزوى بصـره عـني، وجمجـم يقول:

عصفورة؟ عش؟ أية عصفورة؟ وأي عش؟

واستأنفت أقول:

يمينـاً لقـد لوّعـك الحـب، وإن قلبـك لينطـوي علـى جـرح دفين!

فأطرق يشدّ على يدي قائلاً:

دعني بربك دعني... خلّني وما بي... إنه سرّي!

ثم تغشاه الصمت هنيهة، وأنظاره تسبح في أعراض الأفق، وإذا هو تنفرج شفتاه، رقيق الصوت، حزين اللهجة كأنما يناجي نفسه... يقول:

"...يحكى أن.. يحكى أن فتى يدعى "سرحان" درج في قرية تسمى "الشباريق"، وكان أخوه الشيخ "محمد الرخ" إمام المسجد الكبير في القرية يكفله منذ الطفولة، وقد أحسن تنشئته وتربيته، فعلمه القراءة والخط، وأحفظه ما استطاع أن يحفظ من كتاب الله، واستعان به في خدمة المسجد، وأداء الأذان في مواقيت الصلاة.

شغف هذا الفتى منذ صباه برجل ينتسب إلى بعض الطرق الصوفية لا يخلو من لوثة، أكبر همه النفخ في صفارته، وترديد الأذكار ليل نهار، فاتخذه الفتى أستاذاً له، لقن منه فن الصفير، وروى عنه الأغاني والترانيم.

ويوماً، والفتى في نحو السابعة عشرة من عمره، وقف على رأس الطريق ضحوة يرقب، فإذا أخوه الإمام قادم بعد غيبة عن القرية نحو شهر... وراع الفتى أن يرى أخاه قد اصطحب إحدى النساء منتقبة تكسوها الملاءة السوداء.

من تكون؟ إن امرأة أخيه قضت نحبها منذ أشهر قلال، وما كان لأخيه أن يصطحب من النساء إلا ذوات القربى، وليس يلوح على هذه المرأة أنها من أهله...

وبينما الفتى في دهشته، إذ دنا منه أخوه يرغب إليه في أن يحمل عن صاحبته ما في يدها من صرّة المتاع، وهو يقول له:

صافح زوج أخيك!

وعقدت البغتة لسان الفتى، فمشى عاثر الخطا تتنازعه خجلة وفضول... وهمهم يريد التحية، ولا يدري بأي قول نطق، وما لبث أن تناول صرة المتاع مسرعاً إلى الدار.

كانت عروس الإمام في زهرة الصبا، وضيئة الطلعة، ما كاد الفتى يعايشها أياماً حتى أنس بها أنساً لم يحسه لأحد من قبل. وكلما تقادم العهد جدّ من ألفة الفتى لها ما يملأ نفسه هماً، وبان له أخيراً على غير شك أنه يهواها، وأن الهوى يذيبه، فهاله الأمر، واستنكف أن تكون له هذ العاطفة الذميمة نحو زوج أخيه... أخيه الذي هو في مقام أبيه، ولي نعمته في عيشه كله.

وعالج الفتى أن يرد عن قلبه ذلك الهوى الغشوم، فحرص دوماً على ألا يخلو بزوج أخيه، وتحاشى جاهداً أن يطارحها الحديث، فكان كأنما ينفخ في النار، يزيدها من ضرام...

ولم يجد بداً من أن يقبر في أعماق نفسه سره الفاضح، لا سلوى له إلا صفارة من قصب، يودعها نفثات ملهوفة من صدره المقروح.

وضاق الفتى ذرعاً بما كان يلحظه من رعاية زوج أخيه له، وبرها به، ولا سيما في مغيب أخيه... فإذا خصته بشيء من طريف ما تطهو من طعام، تأبى أن يقربه، متلمساً ألوان المعاذير، وإذا تعللت ببعض الأسباب لإطالة حديثها معه، تعمد اقتضاب الكلام، بغية الإفلات.

وذات يوم، والشمس على أهبة الغروب، كان الفتى خالياً بنفسه خلف الدار، آخذاً بصفارته يبثها نجواه، وهو تائه الفكر هيمان، فاستشعر على حين بغتة أن خلوته يشوبها طارق. وما إن تلفت حوله حتى لمحت عينه "هنية" زوج أخيه تواريها كومة من حطب عن كثب، وهي ترنو إليه في سكينة وخشوع، فملكته رعشة، ونهض من فوره يقول:

أنت هنا؟

فأجابته في صوت عطوف:

حضرت منذ قليل.

فقال لها في اضطراب:

ما أتى بك؟

فكسرت عينها، وهي تقول:

جذبني صفيرك.

ورآها تتهادى إليه حتى واجهته، فقلقت قدماه، يبغي هرباً... فأمسكت "هنية" بطرف كمه تقول:

ماذا يعجلك؟ لتلبث قليلاً...

فصاح الفتى صيحة مختنق، وهو يدير عنها بصره، وينحيها عنه بيده، قائلاً:

دعيني... دعيني...

فهمهمت تقول له في مسكنه وانكسار:

ماذا يبعثك على كرهي؟ لم تضيق بي؟

واستبدت بها نوبة من البكاء والنحيب فأحس الفتى شغاف قلبه يتهتك، ورأسه تغلي مراجله، واقترب منها يقول في تلعثم:

أنا أكرهك يا "هنية"؟

فأشرعت إليه عيناً تشرق بالدمع، وفي نظراتها تعرّف واستخبار، فوقف حيالها يحكم أوصاله، ويقهر عاطفته، فإذا هي تلقي برأسها على صدره، ويداها تتشبثان بمنكبيه، وجفناها ينسدلان، وخيل إليه أنها توشك أن تتهاوى، فألفى نفسه يطوقها بذراعيه، وكانت بينهما فورة من تقبيل وعناق! وأنبهتهما من نشوة الصبوة أصوات حملها النسيم من بعيد، فتطلعت أعينهما هناك وهنالك، فاستبانت لهما على جسر الترعة أشباح سيرها وئيد، فارتجفت "هنية" وهي تقول:

هذا أخوك في صحبة بعض مستأجري أرضه.

وقفزت تدخل الدار، فاتخذ الفتى طريقه في الحقول يطيل سيره، وهو يحاول أن يراجع صحوه من سكرة تلك الساعة.

وعاد الفتى إلى الدار، فوافق أخاه جالساً إلى صينية الطعام، وقد شرع يصيب عشاءه، فلما وقع بصر الشيخ على أخيه، صاح به وفي قوله رنة فرح واستبشار:

أين كنت؟ ما أطيب الليلة!... أقبل... أقبل...

فوقف الفتى حائراً لا ينبس، وواصل الشيخ قوله متضاحكاً:

سنة كلها خير وبركة... لقد أجرنا الأرض الليلة بقيمة فاقت ما كنا نؤمل... الحمد لله.. تعال فخذ نصيبك معي من الطعام.

فجلس الفتى إلى الصينية قبالة أخيه، وطفق يأكل، يده إلى فمه تلقي باللقيمات وترجع إلى الصينية تصيب منها عوداً على بدء، وذلك على غير وعي منه ولا تيقظ، عبثاً يحاول أن يلملم ما تشعث من فكره، ويضبط ما اهتاج من أعصابه.

وفي الفينة بعد الفينة تهلّ "هنية" على الحجرة بجديد من الصحاف تارة وبقلة الماء تارة، وهي تسير ممتقعة الوجه، مسترخية الجفنين، لا تستطيع لخطوها وزناً.

وما إن تقبل على الحجرة، حتى ينكس الفتى رأسه، ويمضي في الطعام متشاغلاً به عجلان، ولم تكن "هنية" تلبث إلا ريثما تضع الأشياء في مواضعها وتعود أدراجها على الفور.

أما زوجها الشيخ، فكان متطلقاً يثرثر في حديثه عن الإجارة، وهو بما ظفر به مغتبط تيّاه.

وبغتة، والفتى منكب على صحفة طعامه، تطن حول سمعه كلمات أخيه لا يعي منها حرفاً، أزعجه من غفوته سقطة جسم في الحجرة، وتحطم بعض الآنية. فالتفت يتعرف الأمر، فإذا أخوه ينهض مسرعاً إلى زوجه، وقد تهاوت على الأرض، وانزلقت من يدها الصحاف، وسمع أخاه يقول:

ما بك يا "هنية"؟

فاعتدلت المرأة تصلح شأنها، وهي تهمهم:

لا شيء... أصابني دوار!

وأنهضها الشيخ بين يديه، وصحبها إلى مخدعها قائلاً لها في تحنن:

استريحي قليلاً.

ولزمها حيناً يعنى بها ويلاطفها، والفتى ماكث في مكانه يرقب ما يجري مخبول النظرات، كأنه تمثال من حجر، لا يملك لنفسه من حراك.

ورجع الشيخ إلى مكانه من صينية الطعام يستأنف عشاءه، وقال للفتى:

أجهدت المسكينة نفسها في أعمال الدار.

ولما لم يبادله أخوه الحديث، ممسكاً عن الطعام، أردف قائلاً وقد رفع إليه بصره:

مالك لا تأكل؟

فعالج الفتى أن يجيب، وبعد لأي قال متحشرج الصوت، يزيغ بصره عن أخيه:

اكتفيت!

وأعجب ما كان من أمر الفتى أنه كان في هذه الساعة لا يطيق أن ينظر إلى أخيه، وأن يتابع الحديث معه... إنه ليجد في نفسه طارئاً من الشعور بأنه يمقت أخاه، وينكر عليه حظه من الحياة!

وهبّ واقفاً يطلب الخروج، فسمع الشيخ يقول له:

إلى أين؟

- إلى المسجد، لأغلق بابه...

وأدبر عن الدار، تقوده قدماه إلى البقعة التي كان فيها منذ قليل مع "هنية" يستمرئان متعة اللقاء... وما هي إلا أن طاف ببصره يمنة ويسرة، ثم انخرط في نشيج وبكاء، وظل على حاله فترة، وكأن روحه تذوب في مسيل الدموع!

ولا ينسى الفتى كيف قضى تلك الليلة العسراء، فقد مرت به ساعاتها أرقاً تتقاذفه الأركان والجدران، خلف الدار، فإذا غلبته إغفاءة تمثل له شبح أخيه الشيخ شائه الوجه، تتلظى عيناه، في يده يلتمع سيف المسجد الخشبي، وما يلبث أن يهوى به على جسد الفتى في قساوة وضراوة يقطعه إرباً إرباً، فيصحو الفتى مذعوراً محموم الأوصال كأنما يريد أن ينسلخ من جلده.

ولم تكد تتجلى عنه ظلمات الليل، وتنضح جبينه أنداء السحر، حتى سكنت سورته، وغشيه سبات ثقيل... فلما أعلا الضحا، وأراد أن ينهض، خانته قواه، واستشعر الخور يملك عليه جسده كله، فجلس إلى جذع من جذوع النخيل، والفتور ينجاب عنه شيئاً بعد شيء. وفي الحين بعد الحين تسنح لخاطره بعض الصور، فيثور عليه الضمير، وتخزه ندامة.

ونادى المؤذن لصلاة الظهر، فلباه الفتى قاصداً المسجد، وهناك وافق أخاه، فسارع إليه يعتذر من التخلف بألوان من الأكاذيب... وما عتم أن هبط على يد أخيه مرتجفاً يقبلها غير مرة، وهو يقول:

سأكون دائماً طوعك، أبتغي مرضاتك... فكن راضياً عني.

فقال له الشيخ في تحنان:

أنا راض عنك دائماً... هداك الله، ووفقك للخير، وعصمك من الشرور والآثام...

فسما الفتى بعينه إلى وجه أخيه، فطالعته قسماته تتجلى فيها محبة وإخلاص ورضا.

وأبى الفتى أن يريم المسجد بقية يومه، فلما أسدلت العشية أستار الظلمة، كان الفتى قد أقسم بينه وبين نفسه على أمر، وعول على أن يبر بقسمه أبد الدهر... لقد لطف الله به فيما جرى من ملاقاته الآثمة لزوج أخيه، ولن يعود لمثلها ما بقيت فيه حياة.

وتوالت على الفتى أيام قضى أكثر ساعاتها في المسجد، يطيل الصلاة، ويكثر التسبيح، وكان لا يتوخى الدار إلا عند الضرورة القصوى، بمحضر من أخيه لابد... فأما "هنية" فكان لا يكلمها إلا لماماً في اقتضاب، متحاشياً أن تلتقي عيناها بعينيه، وأما صفارته فقد هجرها في مرمى بعيد، لا ترطبها أنفاسه العذاب!

وانقلب الفتى ناسكاً وقور السمت، صلب القسمات، يريد نفسه على ألوان من التقشف والشظف، ولكنه أدرك من أمره أنه كان سريع الذهول، طالما أخطأ في صلاته، وطالما شرد فكره وهو آخذ في تسبيحاته، فإذا هو تتراءى له أطياف لا يكاد يتبينها حتى ترتعد فرائصه، وهو يهمهم:

إنه معها... إنها له...

ويرجع إليه ما عزب من صحوه، فيضرب جبهته بيده، هاوياً على سبحته، يستغفر الله العظيم!

وتواردت الأيام على الفتى تدور به في آفاق شتى، يقبل على عبادته حيناً، وتلعب به الوساوس والتصورات حيناً آخر، وهو في عامة أمره يجاهد نفساً باتت فريسة الحيرة والقلق.

وبينما يكون الفتى مطمئناً إلى أنه ملك زمام شعوره، إذا به بغتة يروعه هتاف تتردد أصداؤه في أحناء صدره، فيدوي في مسمعه صوت يقول:

إنه معها.. إنها له!

ويخرج هائماً على وجهه، لا يعرف إلى قرار من سبيل.

وذات عشية، وقد جهدته نوازع نفسه الجياشة، وطال به التطواف في أطراف الحقول، تحت جنح الليل، ألقى نفسه بعد

لأي تجاه المسجد، فدخله في استسلام، واستلقى على الحصير يبيح لأوصاله أن تسترخي، ولوعيه أن يغيب... وفيما هو على حاله تلك، إذ شعر بيد تلمس كتفه، فرفع جفنيه يتبين في ضوء القمر المنساب من الكوة، وما هي إلا أن وثب مذعوراً كأنما لسبته عقرب!

إنها "هنية" عينها، زوج أخيه، يلمحها في تلك الساعة الواغلة في صميم الليل، وفي ذلك المكان الذي ليس فيه سواه.

وسألها في تلعثم:

فيم جئت؟

ـ لم تحضر إلى الدار طوال يومك!

ـ وما شأنك بي؟

فتدانت منه تأخذ بكتفه وهي تقول مبهورة الأنفاس:

لم يبق لي صبر... جئت لأراك في خلوة...

ـ أنسيت يا "هنية" أن لك زوجاً هو أخي... أنت له... أنت له...

ـ بل إني لك دون سواك.

وتشبثت بصدره تتعالى تنهداتها وهي تقول:

لا تكن جافياً قاسي القلب... كفى ما كابدت لأجلك من عذاب!

وانتظمت جسمان الفتى انتفاضة عارمة زلزلت كيانه، وأوقدت فيه ناراً حامية، فدارت يداه على الفور بالمرأة تطوقها وتهصر عودها، وهوى عليها يقبلها منهومة شفتاه، وهو يردد في أنفاس تتلاحق:

أنتِ لي... لي أنا وحدي!

ولبث الفتى مع "هنية" ساعة من ساعات الغرام العنيف...

ساعة رائعة يستطيع الفتى أن يقسم لك غير حانث أنه قد أصاب فيها من النعيم ما لم يصبه أحد منذ خلقت الأرض... إنها في حساب الزمن ساعة، ولكنها في الحق أحفل عنده بالمتعة والنشوة من أعمار طوال.

نام الفتى وصاحبته متعانقين، لا يعنيهما من الوجود شيء، حتى لاحت في الأفق تباشير الفجر، ولم توقظهما إلا طرقات بالباب، يتبعها صوت ينادي:

يا "سرحان"... افتح يا "سرحان"...

فقالت المرأة للفتى في همس راجف:

هذا أخوك...

وتواصل الطرق على الباب، وتابع الصوت نداءه:

يا "سرحان"... افتح يا "سرحان"...

فوجد الفتى نفسه يجيب عالي الصوت:

سأفتح... سأفتح...

ولم تجد المرأة بداً من التسلل، صاعدة إلى سطح المسجد، على حين اتخذ الفتى طريقه إلى الباب يفتحه، ودخل أخوه مقطب الجبين يقول:

أما زلت تنام في المسجد يا "سرحان"؟ أليست لنا دار تسعك؟

ـ سرقتني إغفاءة، بعد صلاة العشاء، فامتد بي النوم على الرغم مني...

وجلس الشيخ صامتاً بعض وقت، ثم استأنف يقول في قلق:

لقد صحوت من نومي، فلم أجد "هنية" في الدار...

فقال الفتى مأخوذاً يعاني التلفظ:

كيف ذلك؟ أين ذهبت؟

فقال الشيخ هين الصوت:

خرجت... أتكون قد ذهبت لتملأ الجرة؟ أتكون في بيت جارة لها تخبز؟

فهمهم الفتى:

لابد أن يكون ذلك لابد...

وخلا الشيخ لنفسه صامتاً هنيهة، ثم نهض قائلاً:

هلم إلى الصلاة يا "سرحان".

ومثل الفتى عن كثب من أخيه يركع ويسجد، وكانت صلاة آثمة باركها الشيطان.

وشرع الناس يتوافدون على بيت الله، يؤدون له مكتوبة الصبح، والفتى يقاسي من حال محنة عسراء، فما شهد أخاه يبارح المسجد حتى انسل صاعداً إلى السطح وهو يتلفت، وما كان أشد دهشته حينما ألقى السطح خالياً ليس فيه من إنسي. فطوف ببصره غير مصدق، وجعل يذرع السطح متأملاً كل رقعة فيه، حتى كأنه اختبل، وانتهى به التطواف إلى حافة السطح خلف المسجد، وأفلتت منه نظرة إلى الأرض، فندت من حلقه صيحة مصعوق.. وسرعان ما ألقى نفسه ينحدر

على الجدار، حتى بلغ مسقط "هنية" فإذا هي ملقاة تئن في خفوت، فأقبل عليها في هلع ولهف، وهو يسائلها:

ما بها؟

فعالجت أن تجيب في عناء:

لقد تحطمت يا "سرحان"... تحطمت...

وكانت تعض على شفتيها في عنف، لتكتم التأوه، فاحتضنها الفتى يواسيها، ولا يدري ماذا هو قائل؟ وماذا هو فاعل؟ فسمعها تهمهم:

أوجاعي لا تطاق... إني أموت!

وما وجد الفتى بداً من أن يحتملها في رعاية واحتراس والأسى يمزق نياط قلبه، ورأسه تتضارب فيه المخاوف.

وانتحى بها بيت "أم عبد الجليل" وكانت مستودع سره، عطوفاً عليه، وفية له، فأفضى إليها ببعض الأمر، وناط بها تدبير المخرج.

فنهضت المرأة ناشطة إلى دار الشيخ تنهي إليه الخبر.

وما أسرع أن نقلت "هنية" إلى دار زوجها تحوطها العناية والتعهد.

وأشاعت "أم عبد الجليل" أن "هنية" قدمت عليها قبيل الفجر لتخبز، وصعدت إلى سطح الدار، تجلب منه الوقود، فزلت بها القدم، وسقطت تلك السقطة الحاطمة.

ومضى يومان، تكابد فيهما "هنية" آلاماً مبرحة، والفتى عائد بتلك البقعة الخالية وراء الدار، حيث ارتشف أول قطرة من غرامه المحرم. فكانت تنوبه ثورات تحتد به، حتى ينحى على شعره تقطيعاً، وعلى جبهته لكماً وجيعاً، وهو يغمغم مختنق الصوت:

أنا الذي يجب أن يعذب... أنا الذي يجب أن يموت!

وقضت "هنية" نحبها في الغداة، وشيعت جنازتها إلى جبانة القرية على النحو المألوف في عرف الريف.

وتجلد الفتى أول الأمر، يكبت مشاعره في جهد، فقام بما وكل إليه من شأن المأتم، ولكنه كان يؤدي عمله في تبلد ووجوم. وكثيراً ما تزدحم عليه التصورات والأخيلة، فيحس كأنما هو يهوى من حالق، أو كأنما هو تتخسف به الأرض.

وبعد أيام عراه انقلاب، فلم يعد يطيق اللبث في مكان، وإذا هو يهيم على وجهه في المطارح القصية، كأنه ثور انفك من قيوده، فهاج وماج.

وأسلمه ذلك بعد حين إلى انهيار وخمول، فلزم الدار أكبر وقته، وهو يحاول جهد إمكانه أن يتجنب مواجهة أخيه، فإذا التقيا على رغم منه وكره، أحس كأنما أخوه يوشك أن يسأله:

كيف سولت له نفسه أن يفعل ما فعل؟

وعلى مرّ الأيام أحس الفتى بأن سره ينمو في صدره، ويكاد ينطق بجريرته الشؤمى، وأن العيون من حوله تقول:

خذوه!

وكان إذا برح الدار، تنقل في أرجاء القرية، متنكباً عن المسجد لا يقربه، فجاءه أخوه ذات يوم يسأله:

فيم تخلفك عن بيت الله؟

فلم يجد الفتى مندوحة من الذهاب إليه، ومعاودة القيام بعمله فيه... وفيما كان يروح ويجيء، تتمثل له مشاهد ليلته التي قضاها مع "هنية" فيه، فينقبض صدره، وتغيم عيناه، وتنتهشه الأفكار السود.

ولما جن به الليل في المسجد، أحس الخوف يدب في أوصاله، ويتسرب في كيانه، ولكأن أشباحاً مفزعة تدف حواليه، وهمساً راعباً يطن في أذنيه.

وما كاد المسجد يخلو من قصاده، حتى عمد إلى الباب ليوصده، وبينما هو في طريقه إليه استشعر خفق أقدام فوق سقف المسجد، فأرهف السمع، ولقلبه وجيب دؤوب. فألقى نفسه يهرع إلى السطح صاعداً، وتراءى له على الحافة طيف يتردد، فأقبل نحوه، فانهوى الطيف دفعة، ورن في أذن الفتى وقع سقطته، وتتابعت إليه أناته يتوجع. فانحدر الفتى على الجدار ليبلغ مسقط الطيف، فإذا هو في البقعة التي احتوت "هنية" منذ أيام جسداً ملقى يئن في خفوت.

وحوّم الفتى بعينيه على حذر وتخوف يبحث عن الطيف، فلم يجد له من أثر، وما إن خطا خطوة حتى صادف أخاه الشيخ قادماً من جانب المسجد، فبوغت بمرآه، وما عتم الشيخ أن قال في استنكار:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!... أنت هنا؟... فيم بقاؤك في الظلام؟!

فـوجم الفتـى واقفـاً يـدور رأسـه، وتزيـغ عينـاه، ويبـدو ارتباكه واضطرابه... واستأنف الأخ قائلاً:

ماذا بك؟ ما الذي تخفيه عني؟... تكلم!

فصاح الفتى في غير وعي:

لا تسألني.. لست مجيبك... هذا قضاء الله.

فتعجـب الأخ مـن قولـه، وتـدانى منـه يتفـرس فيـه، فـرده الفتى عنه يصيح مخنوق الصوت:

لا تقربني.. لا تقربني!

وانطلق يهيم على وجهه كمن أصابته جنة...

وكان هذا آخر عهده بأخيه، ويقريه أهليه..

وتقاذفته البلاد على تنائي أطرافها، يحيا حياة الطريد الشريد، لا أنيس له ولا سمير إلا تلك الصفارة الحنون.

وهاهو ذا يستقر به المطاف في هذه المدينة، حيث تراه!..."

***

ونكس زامر الحي رأسه، وقد نال منه الجهد، فقلت وقد شجاني حديثه:

لماذا لا يستغفر الخاطئ ربه، مستأنفاً تقواه؟ إلى متى بتخلف عن بيت الله؟

فرفع الرجل وجهه إلي، وقد برقت الدموع في محجريه، وهمهم:

أترى يغفر الله له ما قارف من إثم؟ أترى ينفسح لمثله المسجد الطهور؟

وما هي إلا أن اجتذب صفارته من صدره، وانكب عليها يوقع لحناً رقيقاً يتفطر من ضراعة وندامة وحنين!

مظاهرة...

اتخذ "حسنين أفندي" سبيله إلى داره، ضائق الصدر، على جبينه قطوب، تسرع به قدماه، مديد القامة، يهتز عوده في السير اهتزازة النخلة حين تعتورها الرياح.

لقد كان في مشربه المختار، يقضي على مألوف عادته فترة الأصيل، بيد أنه بادر إلى ترك المشرب بعد أن بنى عزمه على ألا يعود إليه، حتى تستقر الحال، ويستتب الأمان.

خير له أن يعتكف في داره، متنكباً عن دواعي القلق، وأسباب الاضطراب، ناعماً بالسكينة والطمأنينة في مستقره الأمين، آنساً بذلك السرب الألوف من قططه، مسترخياً على كرسيه الوثير، يستروح نسمات العشى من تلك النافذة التي تريه وجه الطريق.

بعداً للمشرب في ذلك العهد العصيب... فإنه لم يعد يتيح لقصّاده ما كان يتيح لهم من متعة وبهجة وإيناس.

كـــان الرجـــل في مواضـــي أيامـــه يتـــوخى المشـــرب في الأصـائل، لكـي تطـالع عينـاه أفـواج النـاس ومواكـب النـور، ولكـي يتلقط سمعه مـا عسـى أن يكـون مـن أخبـار وأحـداث، ولكـي يطـارح جلسـاءه أطايـب النكـات والأفاكيـه... وهـو في الفينة بعد الفينة يشنف أذنيه بالاستماع إلى ما ينقله المذياع من الأغاني والأناشيد، فإذا أصاب من ذلك كله مـا أصـاب، قفل إلى الدار ليستقبل فراشه رضى النفس هادئ الأعصاب.

وماذا يراد منه أن يفعل وقد ذرف على السـتين مـن عمـره، وبليـت قـواه فيمـا مـارس مـن وظـائف حكوميـة أسـلمته إلى التقاعد؟

إنـه في مرحلتـه الجديـدة مـن حياتـه ليعـد السـاعة الـتي يقضيها في المشرب هي الساعة الخصيبة في يومه الجديب.

أمـا الآن فلكـأن الزمـان قـد نفـس عليـه هـذه السـاعة الطيبة، وأبى إلا أن يحيلها ساعة فزع واهتياج.

ماذا بقي في المشرب يحدوه ويستهويه، بعد أن صار أشبه ما يكون بحومة قتال تدوّى فيها جلبة المناقشة والحوار؟

النـاس اليـوم في المشـرب زرافـات يتنـازعون الصـحف، ويتبـارون في قراءتهـا والتعليـق علـى مـا فيهـا، عاليـة أصـواتهم، ثائرة نفوسهم، لا يفترون ولا يملون.

ولـيس عجبـاً أن يجـري ذلـك في المشـرب، والشـعب كلـه يرتقب أن تتمخض الأيام الحاضرة عن موقف حاسم فيه تقرير لمصير البلاد.

لم يعـد "حسـنين أفنـدي" يجـد في المشـرب مـن يناقلـه الحديث في أخبار الناس وأسرار البيوت، يتخذ منها مثاراً للوم والاستنكار، وسبيلاً إلى التلهية والسلوى.

وما كان لأحلاس المشرب أن يشغلوا أنفسهم بما كانوا يشـغلونها بـه مـن قبـل، والقـوم في طـول الـبلاد وعرضـها مصروفون إلى التأهب للكفاح، واستقبال ما يطرأ من جسام الأحداث.

وهذا المذياع المهذار الذي كان طروباً ضحوكاً لا يسأم ترداد المهازل والمعابثات، ما باله أصبح وقوراً محتشماً كله جـدّ وتزمـت، غنـاؤه تحمـيس للنفـوس، وأحاديثـه تـذكير بالواجب الوطني، وأنباؤه تمهيد للموقف الحاسم العتيد.

ما للدنيا من حول "حسنين أفندي" قد تبدلت، فإذا هي عنف وقسوة، وإذا هي دعوة إلى مقاومة ونضال، وإذا هي في مجمل أمرها ثورة أيّ ثورة؟...

ما شأن الرجل بهذا كله، وهو في شيخوخته يطلب الراحة بعد التعب، ويريد أن يستمرئ ما بقي من أيامه على ظهر الأرض سالماً معافى؟

لقد أدى ما عليه للوطن، فخدم الحكومة سنين طوالاً، طاهر الكف، موفور الأمانة، وخرج منها مشكور السعي، حميد الأثر.

إنه ليذكر عهوده الغابرة، فلا يفتأ يشيد بما كان يشيع فيها من أمن ويمن ورفاهية، حيث لا موجب لثورة، ولا دعوة إلى كفاح...

بلغ الرجل باب داره، ورأسه تتناوح فيه الهواجس والأفكار، فدخل عجلان يغلق الباب خلفه، وقد واثق نفسه على ألا يغادر الدار حتى تنجلي العاصفة، وتتزاح الغمة، ويراجع الحياة سلام.

وكرت أيام لزم فيها الرجل مكمنه، يصبح حيث يمسي، ويمسي حيث يصبح، لا يزور ولا يزار، ولا يعايشه من

الناس إلى خادمه الصبي الذي يضطلع بمرافق الدار ويقوم على شؤون المطهى، وليس له من أنيس إلا ذلك السرب الألوف من القطط، يقضي معه أطيب الأوقات.

وفي إحدى الأماسي كان "حسنين أفندي" كشأنه متهالكاً على مقعده حيال النافذة، يستنشي نسيم الليل، ويرعى نجوم السماء، وهو يستغفر الله من خطاياه، وفي حجره قطه المختار "مشمش" يسترسل في قرقرة كأنه يرتل بها صلوات وتسابيح!

وبينما كان الرجل آنساً بقطه، يربت ظهره، إذا هو على حين بغتة يكف عنه يده، ويحدق إليه، وما هي إلا أن همهم:

لقد أطلت المكوث معي، حتى خدرت ركبتاي... أما آن لك أن تتزحزح؟

وما لبث أن وكز القط في غير عنف، وهو يواصل قوله:

استيقظ يا صاح... أملكت ركبتيّ فأصبحتا لك وحدك؟

حقاً لقد أغرتك طيبة نفسي فجاوزت حدك.

وسرعان ما وكز القط مرات في شدة وحدة، فرفع إليه القط رأسه يتبين: ما الخبر؟ ولم يلبث أن تنحى عن حجر سيده، واثباً إلى أديم الأرض، في غير عناد ولا إنكار.

وجعل القط يتمطى ويقوس ظهره، متعالياً به، ثم قصد إلى إحدى النمارق، فتكوّر عليها كأنه حلقة.

إن "مشمش" ليعجب من شأن سيده في هذه الآونة...

ثمة شيء غير مألوف، ثمة باعث على هذه الروح التي فقد بها "مشمش" ما كان يخصه به سيده من عطف.

لا مرية في أن الرجل مغلوب على أعصابه، ليس يملك لنفسه من قرار.

على أن "مشمش" لم يقم لذلك الانقلاب كبير وزن، ولم يعره مزيد اهتمام.

ما برح "مشمش" يتبوأ مكانته في الدار، فهو عميد القطط غير منازع، وهو موفور الحظ من رخاء وتنعيم.

واستأنف القط قرقرته عن كثب من سيده ناعم البال.

فألقى عليه الرجل نظرة حاسد، وحدث نفسه يقول:

حقاً ما أسعد دنياك يا "مشمش". أنت لا تحس ضيقاً ولا تلاقى من كرب... أنت تستمرئ حياتك بارئة من كل شوب... أكل ونوم... وهذه القرقرة التي تبعثها كأنما هي صوت معدتك الطحون!... لو قضيت سجين الدار عاماً تلو عام لما

فاتك من الدنيا شيء، لأنك حيوان أعجم لا تعقل ولا تفهم... أفحسبت الناس يماثلونك في غباوتك وخمولك، يرضون أن تحتويهم الحوائط والجدران؟

ونهض "حسنين أفندي" متبرماً متسخطاً يرمي القط بشواظ من عينه، وملء نفسه زراية عليه، واحتقار له. ولكن القط لم يعبأ بما يقول سيده، وانخرط في قرقرته المنسجمة، وهو مكور يتداخل بعضه في بعض، حتى لا تدري أين ذيله وأين رأسه؟

وأدبر الرجل عن الحجرة يجتاب الدار، وقد استبدت به الحيرة، وعزّ عليه أن يستقر.

في مثل هذه الساعة من أماسيه الماضية، كان المشرب العامر الوضاء يضمه إلى رفاقه، حيث يثرثر ويقهقه، ويسمع المعجب والمطرب!

أما هنا، في كسر البيت، فإنه لا يجد من يتحدث إليه، إلا هذا القط الخرف، يتابع قرقرته المملولة التي تحاكي حشرجة الاحتضار!

وأحس الرجل بأن ريقه يغيض، وأن حلقه يكاد يتشقق، فرغب في شربة ماء، وذكر أنه طلب إلى خادمه منذ العصر أن

يمـلأ القلـل، وأن يضـعها علـى طنـف النافـذة البحريـة، فحـث خطاه مؤملاً أن يبل صداه بماء مثلوج.

ولما بلـغ حافـة النافـذة ومـدّ إلى القلـل يـده، ألفاهـا ناضـبة ليس في واحدة منها قطرة، فمـا عـتم أن ثـارت ثائرتـه، وانبعـث صائحاً:

يا "عبد الفتاح" ... يا ولد يا "عبد الفتاح"...

وعـدل عـن النافـذة، متجهـاً صـوب المطهـى، وهـو يـدعو غلامه مرة بعد مـرة، وصـوته تتجـاوب بـه أرجـاء الـدار، دون أن يظفر بمجيب.

وازداد الرجل من حنق، وانطلق مهدداً:

سيرى.... سيرى...

وفيما هو يذرع الحجرات ذهوباً وجيئة، فتح البـاب، وبـدا منه الغلام مقبلاً يقول في اهتياج:

سيدي... سيدي... خبر مهم...

فأشـرع إليـه الرجـل نظـرات احتقـار، وهـو يحـاول ضـبط أعصابه، وقال له:

أي خبر يا ولد؟

ـ خبر إلغاء المعاهدة...

فأخذ "حسنين أفندي" وجعل يردد الجملة على لسانه:

المعاهدة؟... إلغاء المعاهدة؟

فأعلى الصبي صوته بقوله:

لقد حدث هذا والله العظيم!... بأذني سمعته... انتهى الأمر... الحكومة ألغت المعاهدة الليلة!

وتوسط الصبي الردهة، وصرخ قائلاً:

فليسقط الطغاة... لا معاهدة بعد اليوم!

وشعر رب الدار بأن غلامه قد جاوز الأدب اللائق في حضرة سيده، وأنه قد رفع صوته متشدقاً أمامه، مطلقاً للسانه العنان... فأراد الرجل أن ينهره ويزجره، ولكنه ما لبث أن أمسك، يحدوه باعث خفي لا يعرف له مأنى...

وعبرت فمه ابتسامة استخفاف وهو يقول رزين النبرة، وقور اللهجة:

وهل تعلم معنى كلمة طغاة يا بطل؟

فقال الصبي جريئاً:

نعـم، أعلـم... فليسـقط الطغـاة... فليسـقط المسـتبدون... الجلاء، الجلاء!... الوحدة، الوحدة!

وما كاد ينتهي الصبي من قولته، حتى ترامت إلى الدار صيحات الشراذم من غلمان الطريق، يرددون:

الجلاء، الجلاء!... الوحدة، الوحدة!

وبهت الرجل، وتمشت الرهبة في أوصاله، ومثل يستمع للهتاف المتوالي، وهو يتزايل على مد الطريق.

فأما الغلام فإنه ما كاد يسمع ذلك الهتاف، حتى راح يتواثب ويصفق، وينظر إلى سيده قائلاً:

صدقتني يا سيدي؟ أتسمع يا سيدي؟

وإذ هدأت الجلبة تدانى الغلام من "حسنين أفندي" يقول:

أتريد عشاءك يا سيدي؟

فأجاب الرجل مهزول الصوت، يحاول عبثاً أن يلفظ كلماته في فخامة وتنفخ:

لا أريده الآن...

وهمّ الرجل أن يأخذ على غلامه تقصيره في ملء القلل، ولكنه لم يزد على أن يشير إليه بيده أن ينصرف.

على أن الصبي لم يبرح مكانه، بل شرع يقول لسيده، وهو يهتز:

ستتألف غداً مظاهر كبيرة...

وعلا الشحوب وجه الرجل، وهو يهمهم:

مظاهرة! مظاهرة!

ـ نعم، مظاهرة كبيرة... تجوس خلال المدينة من أقصاها إلى أقصاها... مظاهرة تضم الطوائف كلها، لكل طائفة رايتها...

وعمد الرجل إلى الباب، يحكم إغلاقه بالمزلاج والمفتاح معاً.

ولم يزل عن الباب حتى استوثق من أمره كل الاستيثاق، ورجع يجر خطواته إلى حجرته، ملقياً بنفسه على المتكئ، مهمهماً:

مظاهرة... لا حول ولا قوة إلا بالله!... ألا يتركون الناس في طمأنينة وراحة؟

وعمد ذقنه بيده، وقد اعتلجت أفكاره تدير رأسه، وتطوف به كل مطاف.

وبكرة أصبح الرجل يتفقد غلامه، فلم يجد له في الدار من أثر، وعجب منه كيف استطاع الخروج، والباب مغلق، والمفتاح في حرز حريز!

وعجل الرجل إلى المطهى، يفتش ويتعرف، فاستبان له أن كوة عالية قد انكسر زجاجها، وفطن إلى أن الغلام قد اتخذ منها إلى الطريق مهرباً...

ووقف الرجل يضرب كفاً بكف، وهو يهدر ويبصق، ويصب لعناته على ذلك الغلام المتمرد الشغوب، بل على ذلك الزمن النكد الذي صار فيه الغوغاء ذوي رأي وتدبير، يقحمون أنفسهم في جسام الشؤون والمعضلات.

وبقي الرجل وقتاً يزمجر، فصكت سمعه صيحة عالية أفزعته، ودنا من إحدى النوافذ على ترقب ومحاذرة، فانجلى له أن الصوت ينبعث من المذياع في بيت الجار...

وأرهف الرجل سمعه، يتطلع، فتناهت إليه عبارات حماسية تتردد فيها كلمات: "توحيد الصفوف" و"الكفاح حتى يتحقق الجلاء" و"بذل النفوس في سبيل الوطن"...

وما أسرع أن تواردت على الطريق زمر من الناس يهتفون ويتصايحون، فعلم الرجل على غير شك أن المدينة في هذا اليوم

يموج فيها تيار كهربي فوار يشبه اضطراب الجو قبيل العاصفة! ولم يتمالك الرجل أن يتوخى نوافذ حجراته، فيحكم إقفالها جميعاً.

واستقر به المقام في حجرته يستريح، فسمع طرقاً على الباب، فتصامم عنه، ولكنّ الطارق لم يمل ولم ييأس، فنهض الرجل إلى الباب على كره، وسأل:

من؟

فكان الجواب:

اللبّان.

ففتح الرجل أغلاق الباب في احتراس، واستقبل "المعلم سند" وهو يناوله وعاء اللبن، ويحييه بقوله:

صباح الخير يا "حسنين أفندي".

ـ صباح الخير يا معلم.

وهم أن يرد الباب، ولكنه وجد نفسه مدفوعاً إلى مجاذبة اللبّان بعض الحديث، وإذا هو يقول:

كيف الأحوال يا معلم؟

ـ الأحوال طيبة... البلد كلها على قدم وساق.

ـ ولماذا؟

ـ ألم تسمع نبأ المظاهرة؟

ـ سمعت.

ـ ستشترك فيها بلا ريب، فإن لذوي المعاش من الموظفين مكاناً خاصاً فيها... ولهم راية خاصة بهم...

ـ راية؟

ـ نعم، راية... ألا علم لك بهذا؟

ـ أعلم... أعلم...

ـ أما راية اللبانين فهي راية عظيمة، طولها خمسة أمتار...

ـ وللبانين راية أيضاً؟

ـ أنكون أقل منكم وطنية يا "حسنين أفندي"؟... كلنا مصريون!

ـ عفواً... لست أقصد...

ـ لقد اختارني اللبانون لأكون في مقدمة الفوج: أحمل الراية، وأطلق الهتاف...

ـ أي هتاف؟

فعلاً الرجل بصدره، وأرسل في حلقه صيحة مجلجلة، يقول:

الجلاء.... الجلاء... لا احتلال بعد اليوم!

فحدق "حسنين أفندي" إلى "المعلم سند" هنيهة، ثم قال له وهو يبتسم في تخابث:

أنت تعرف معنى الجلاء حتماً...

ـ وكيف لا؟ أجاهل أنا؟

ـ وماذا يعود عليك من الجلاء يا معلم؟

ـ نعيش في هناء ورخاء... الخبز يرخص، والملابس تتيسر، والخير يعم...

واقترب "المعلم سند" من محدثه، آخذاً بيده، يشد عليها ويقول:

صلّ على النبي... أزمة وتنفرج... اللّه معنا!

ودخل "حسنين أفندي" مسكنه، مغلقاً بابه عليه، ومضى يسوق رجليه، وهو يجمجم:

لذوي المعاش مكان خاص في المظاهرة... ولباعة اللبن راية وهتاف!

واتجه الرجل إلى المطهى، وفي أذنيه أصداء حديثه مع بائع اللبن، وأقبل يعد الفطور لنفسه وللقطط، وكان قد تعود أن تحيط به في مثل هذا الوقت، تستنجزه الطعام في مواء وهرير، فأدهشه أنه لا يرى لقط ظلاً في هذا الصباح، فدار بعينيه في الحجرات، يدعوها بلهجته التي ألف أن يدعوها بها، ومضى يناديها بأسمائها:

"مشمش"... "بلبل"... "فواكه"... أين أنت أيتها القطط المتكاسلة؟... هذا طعامك قد أعد.

واشتد العجب بالرجل حين انتظر طويلاً، دون أن يستجيب له من القطط أحد... فرجع إلى المطهى، وحانت منه نظرة إلى الكوة العالية التي انكسر زجاجها، وانطلق الغلام منها، فغمغم يقول:

أترى القطط قد هربت أيضاً ليكون لها نصيب المشاركة في هذا اليوم المشهود؟ إن هذا السرب من القطط لم يبرح البيت منذ عهد عهيد، فما باله في هذا اليوم يلتمس له مخرجاً إلى الطريق؟

وبلغت سمع الرجل أنغام موسيقية يبعث بها مذياع الجار، وقد راسلها نشيد حماسي فوار.... فلبث الرجل يصغي وقد

راقه اللحن، وما هي إلا أن جاشت نفسه، واعتلجت فيها مشاعر...

وألقى أصابعه تنقر حافة المائدة نقرات يتابع بها وقع الأنغام، ثم ما عتم أن راح يخطو خطوات راتبة كأنها خطوات جندي...

وانتبه لما يفعل، فأدركه خجل... أطفلٌ هو تملك لبه أناشيد الصبيان؟

وشرع الرجل يطعم، وأنغام المذياع تتوارد على أذنيه، حاملة إليه ألوان الأهازيج، فكان يرعيها سمعه، فتسري في أوصاله باعثة فيها الهزة والانتفاض.

وانكب على طعامه يلتهمه التهاماً، وخفت صوت المذياع شيئاً فشيئاً، حتى انقطع، فحمل الرجل قدح القهوة إلى حجرته، يترشفه فيها على مهل، وقد حاصرته ألوان من الخواطر والأفكار تسبي مشاعره...

وفي الفينة بعد الفينة تتهادى إلى سمعه أصداء تصايح وهتاف، فكان يشرئب إلى النافذة، مستطلعاً ما عسى أن يكون، ثم يتبوأ مقعده يترشف ما بقي من قهوته.

وعلى حين بغتة سمع صوتاً جهيراً ينادي:

فليسقط الغاصبون!

فانبعثت أصوات أخرى تردد النداء في حماسة واحتداد.

الغاصبون... الغاصبون!

وحملته الذكرى إلى عصر شبابه، حين كان موظفاً طاوع حركة الاضراب العام إبان الثورة الوطنية... إنه لم ينسَ حتى اليوم وقفة المذلة والمهانة أمام المفتش الإنجليزي وهو شامخ الأنف، منتفخ الشدقين، يبالغ في تعنيفه، ويستهزئ بوطنيته، وينتقم منه ما وسعه سلطانه عليه أن ينتقم...

إن "حسنين أفندي" ليشعر الآن بأن هذه الصورة القديمة كأن يداً تخرجها من زوايا النسيان، وتجلو عنها غبار الزمان! الغاصبون... فليسقط الغاصبون!

وضاق الرجل بمجلسه، فقام يتسكع في الحجرات، وعرج على المطهى، فألقى طعام قططه لم يمس... يا عجباً لهذه القطط!... كيف استخفت فلم تعد لكي تتناول فطورها؟ وكيف رضي أن يتابعها في هذا الصنيع قطه المختار "مشمش"، ذلك القط الهرم الذي يلازمه ويصافيه؟ أويجحد "مشمش" فضل سيده عليه، ويتركه وحيداً في هذا اليوم الصاخب العصيب؟

وجنح الرجل إلى النافذة يطل، فإذا البيوت تنفض أهلها من شبان وشيب، وإذا الناس يجتمع بعضهم إلى بعض، وهم يتسايرون في حمية، ويتنافلون الأحاديث في جد، متجهين جميعاً صوب الطريق العام...

ومن ثم أخذت الأصوات تترسل على سمع الرجل متواصلة متميزة، تحمل ألوان الهتافات والنداءات، فترك الرجل نافذته يغدو في الحجرة ويروح، وفي نفسه حيرة، وفي صدره حرج.

هاهو ذا قد تخلى عنه غلامه، وتخلت عنه قطته، وبقي وحده في عقر داره يخيم عليه الركود والخمود، على حين أن المدينة كلها على قدم وساق، وأن الناس أجمعين متظاهرون يحتويهم الطريق!

وأعد الرجل لنفسه قدحاً آخر من القهوة، وبلغ به الاهتياج كل مبلغ، فكان يتنقل في أرجاء مسكنه، والقدح في يده، تارة هو في المطهى تصافح سمعه الأناشيد الحماسية، وطوراً هو مطل من النافذة يشهد الناس متزاحمين في ضوضاء...

ولمحت عينه فوجاً من فتيات صغيرات، تكسوهن أردية بيض، وفي أيديهن رايات خضر، وعلى وجوههن تهلل وإشراق

كـأنهن قـد خـرجن في يـوم عيـد!... فجعـل الرجـل يقفـوهن بنظراتـه، وقـد أخـذن بمجـامع قلبـه... يـا للّه!... حتـى هـؤلاء الصغيرات لهن في مظاهرة اليوم نصيب!

وتزايلت رويداً حركـة الطريق، وقلت السـابلة، وتضـاءل الصخب، وأخيراً أقفرت المسـالك، وأصبحت الـدور خاويـة قـد أطبق عليها صمت...

لقـد نـزح الأهلـون إلى الميـادين، وإن "حسـنين أفنـدي" في وحدتـه وسـكونه ليسـمع علـى البعـد حسـيس الضـجة وأصـداء التنادى والهتاف!

وألفـى الرجـل قدميـه تدفعانـه إلى البـاب، فتسـلل خارجـاً منه، ووقف على رأس الشارع حيران يتلفت...

واستبانت له بعض أصوات، فجعل يرهف لها السمع، ومـا لبث أن انطلق صوب الطريق العام...

وكـان كلما مضى خطوات تجلى لـه الضـجيج، كـأنمـا يشده نحوه، ويهديه إليه.

ومـا هـي إلا أن أشـرف علـى مـزدحم النـاس، فانتبـذ مـن الطوار مكاناً يتطلع منه، وبدت لـه أفواج المتظـاهرين كـأنهـا الموج يلتطم، فانعقدت بها عينه يرقبها في حمية واهتياج...

إن هذه الخلائق في شغل بما هي فيه من الأمر العظيم...

فلقد جاز به في غمار الزحام أناس ممن يعرف، فلم يأبهوا له، وتابعوا مسيرهم في الموكب، لا يصرفهم عن أمرهم شيء!

ولاح له بين الزحام بائع اللبن "المعلم سند" ماثلاً على أعناق رفاقه من الباعة وهم يحملون أوعيتهم الكبيرة بين أيديهم وقد اتخذوها صنجاً يضربونه... وهو يهتف فيهم بأعلى صوته:

فليسقط الغاصبون!

والرفاق وراءه يرددون الهتاف، والجموع من حولهم يصفقون معجبين متهللين...

ورجف قلب "حسنين أفندي" ورقت عينه، وأحس قدمه تنساب به إلى الأمام، فسار لا يدري أية غاية يقصد؟ حسبه أنه مع الناس يسير!.

وما لبث أن دارت به الزحمة، واحتوته ألفافها المتشابكة، وضغطته الجماهير تزج به، والنداءات تصك سمعه، فاستشعر الدم في عروقه يتوقد، وأعانته قامته المبسوطة على أن يطوف ببصره يمنة ويسرة، فراعه ذلك البنيان المرصوص الذي يمضي قدماً.

لم يعد للطريق وجود....

فهذا الذي يراه "حسنين أفندي" ليس إلا بحراً متدفع الموج، قوي الهدير!

لم يعد للطريق وجود...

فهذا الذي يزخر به المكان ويعج ليس إلا قلب أمة يخفق، قلباً عزيزاً طعنته الأحداث، فتسايل منه الدم قانياً يشعل المشاعر ويوقظ الأرواح...

وما عتم الرجل أن انفجر صائحاً:

لا استعمار بعد اليوم... فليسقط الطغاة!

فإذا الأفواج المطيفة به تردد صيحته، وإذا هو يواصل النداء أجهر صوتاً وأشد عنفاً، فلا تمل الجموع ترديد ندائه في قوة ونشاط...

وراعه أمره... أحقاً هو صاحب ذلك الصوت المدوّي؟

أحقاً هو باعث تلك النداءات ونافث ذلك الحماس؟

وزهيت نفسه بهذا الصنيع، وندّت منه نظرة إلى الراية في يد حاملها، فألفاها تترنح وتوشك أن تتهاوى، فما أسرع أن امتدت يده ينتزع ساريتها ويسمو بها، فخفقت الراية تظل الرؤوس، فتعالت الصيحات "لحسنين أفندي" تحييه وتشيد به في إكبار.

وما هي إلا لحظات حتى احتملته الناس على الأعناق، فشمخ بالراية يجأر هاتفاً برفعة الوطن وسقوط الغاصبين.

وتقدمت الجموع في سيرها حتى وردت ميدان الثورة، وهنالك تحلق كل جمع حول خطيب يفيض في تكريم البطولة وتمجيد الاستشهاد.

وما كاد "حسنين أفندي" يتوسط الميدان في جمعه، ويسمع الخطباء بين الجموع متنافسين، حتى ألقى نفسه يترجل الكلام ارتجالاً، ويرسله إرسالاً، والسامعون له يوالونه بتصفيق الإعجاب.

وبغتة اختنق الكلام في حلق الرجل، وما لبث أن ترنح جسمه يريد أن ينقض، وريع الناس لذلك، فسارعوا إلى الرجل ينزلونه ويتفقدون أمره، ولا يدخرون وسعاً في إسعافه وإنعاشه.

وفي صحوة غد كانت الوفود يزحم بعضها بعضاً قبالة الدار التي يقيم فيها "حسنين أفندي" وبعد قليل سارت هذه الوفود يتقدمها نعش الرجل مسجى بالراية الخضراء، كأنما هو ما برح في مظاهرة أمس: يحمل الراية، ويقود الجمع، ويخطب في تكريم البطولة، وتمجيد الاستشهاد!

إلى السارق...

في قرية من قرى الريف البعيد، على حجر عريض، بالقرب من أحد المخازن المهجورة، جلس الفتى "عبد السميع" يحد نظره إلى الطريق الزراعي الممهود، ذلك الطريق الذي يخترق أراضي "حسن آغا" وما وراءها من المزارع، تصطف على حافتيه أشجار فارعة معتدلة، كأنها أحراس أيقاظ تتولى خفارة هذه البقعة المترامية الأطراف.

وكان الفتى يبعث فيما أمامه نظرات حائرة قلقة، تجوز في تشوّف وارتقاب بمن يعبرون السبيل. فهنالك صبية يتواثبون خلف الدواب في مرح واستخفاف. وأولئك رجال يلقون على أكتافهم الفؤوس، في وجوههم سيماء الركون إلى محتوم المصاير ومكتوب المقادير. وهؤلاء نسوة تخب في أكسية سابغة قاتمة، وقد انبسطت قاماتهن، واشرأبت هاماتهن، ومضين في لباقة ودربة، يحملن على رؤوسهن قفاف الزاد.

وتطلق محيا الفتى بغتة، وأفتر ثغره عن ابتسامة بدت بها أسنانه مرصصة لامعة، فنهض عن الحجر، وإلى العود، عريض الأكتاف، وسيم الملامح، ينتفش في صدره العاري شعر غزير، وينحسر جلبابه عن ساقين ضخمتين كأنهما قدتّا من جذوع النخيل!

وما هي إلا أن صاح الفتى منادياً في تكرار:

"صابحة"... يا "صابحة"... يا بنت يا "صابحة". وكانت "صابحة" قد أخذت بمقود حمار على جانبيه غرارتان فارغتان... فما إن سمعت النداء حتى استدارت نحو مبعثه، فألفت "عبد السميع" مهرولاً إليها، فاستشعرت نفسها ابتهاجاً كاد يتجلى على قسمات وجهها، فأمالت خمارها الأسود على فمها، تستر ابتسامها. ولم تلبث أن داعبت ظهر الحمار بضربات من عصاها، فهم الحيوان مغزاها، فانفتل يقمص عائداً إلى الدار.

وبلغ الفتى مكان الفتاة وهي تعاني أن تكتم ما بها من اهتياج، ولا تجد من وسيلة لذلك إلا أن تشد خمارها على جانب وجهها طوراً بعد طور، ومضى الفتى بفتاته إلى المخزن المهجور، ووقفا ببابه في صمت وقلق.

وما هي إلا أن أطرق "عبد السميع"، وطال به الإطراق، وهو يحدّق في أديم الأرض، ثم همهم يقول:

لم تحضري للعمل منذ أيام يا "صابحة"!

فتراخت يد الفتاة عن خمارها، تنفض الغبار عن جلبابها، فانبلج محياها تتنضر فيه زهرة الشباب. ورفع الفتى إليها بصره يتملّى مفاتنها، فأسرعت الفتاة إلى خمارها تسبله، وفي عينيها حيرة وتحرّج.

أنس "عبد السميع" إلى "صابحة" منذ وصل بينهما العمل في دار "حسن آغا" إذ كان الخادم الخاص لرب الدار، يضع فيه ثقته، ويستودعه سره، فهو الأمين على متاعه وماله، وهو الحريص على أداء واجبه في نزاهة واستقامة وإخلاص.

وكانت "صابحة" تتردد على دار "حسن آغا" كلما استدعت بعض الأعمال استخدام صبايا القرية حيناً بعد حين. ونبتت بين الفتى والفتاة مودة وألفة، فشاع في القرية ما بينهما، حتى إنهما كانا إذا تراءيا معاً تهامس الناس يقولون:

هنيئاً للحبيبين!

وتناهى إلى والد "صابحة" ما بين ابنته وبين الفتى "عبد السميع" من محبة وهيام، فلم يقع ذلك منه موقع الرضا،

وكيف يروقه ذلك وابنته مهوى فؤاد "شيخ البلد" نفسه، والأمل وثيق في أن يتم بينهما زواج.

وحدث ذات يوم أن توخى الفتى منزل والد "صابحة" يطلب يد ابنته، فثار عليه الرجل، وعنف به، وأنكر منه أن يجرؤ على خطبة فتاته...

فأراد "عبد السميع" أن يؤيد طلبته، ويعزّز خطبته، فانبرى يكشف لوالد "صابحة" عما يعتلج في نفسه من مشاعر الود وعواطف الحب، فما هي إلا أن عصفت بالرجل عاصفة الغضب، فاندفع يقول للفتى:"

أنت تهين شرفي بما تقول.... أتدري من تطلب يدها؟ أقادر أنت على أن تمهرها؟ اغرب عن وجهي، وإياك أن تتعرض للفتاة، إياك أن توقعها في حبائلك، وإلا ساءت العقبى.

فخرج الفتى خزيان محسور القلب،ولكن ذلك لم يفتّ في عضده، ولم يفقده الرجاء.... فعوّل على أن يعمل على إرضاء والد "صابحة" كلفه ذلك ما كلفه من جهد وعنت!

تواصل صمت "صابحة" وهي ماثلة قبالة فتاها يتملاها ولا يملّ، وفي نظراتها يستبين ما طبعت عليه نفسها من طهارة وصفاء، وما يعمر جوانحها من طيبة وإيمان.

وكأنما ذكر الفتى سؤاله لفتاته منذ فترة: لماذا تخلفت عن العمل منذ أيام؟

فاستأنف يقول:

أكانت غيبتك لمرض يا "صابحة"؟

فنكست رأسها، وهي تجيب:

لم أكن مريضة!

ـ ما سرّ غيبتك إذن...؟

فازدادت الفتاة من إطراق، وجعلت تفرك يديها، ولا تجيب، فقال لها الفتى:

ومتى تعودين للعمل؟

فهمهمت تقول:

لن أعود!

فعرت الفتى دهشة، وتعجل قائلاً:

كيف لا تعودين؟

فهمت الفتاة أن تجيب، ولكن الكلمات كانت تحتبس بين شدقيها، وأخيراً رفعت إليه رأسها تقول:

ذلك ما أراده أبي!

ـ ماذا جرى؟

فشرعت الفتاة تدير على وجهها طرف خمارها، وهي تقول:

لقد ساء أبي أن تكون بيني وبينك صلة!

فاهتاج الفتى صائحاً:

أيريد أبوك أن يفرق بيننا؟

فقالت في استسلام:

ذلك ما يريد.

ـ وما رأيك أنت؟

ـ ماذا في مكنّتي أن أصنع؟

فتوقدت عين الفتى، وقال مضطرب الأنفاس:

لا يستطيع أبوك أن يفرق بيننا....

فاندفعت الفتاة تقول:

إن هي إلا أيام...

فصاح الفتى:

ثم ماذا يكون؟

فلم تجب الفتاة، فأتبع الفتى قوله مغيظاً:

لماذا لا تتمين قولك؟ لماذا لا تصارحينني بأنك أصبحت مخطوبة "لشيخ البلد"؟.... ولكن أقسم لك بالله العظيم ثلاثاً إن هذا الزواج...

وهنا اختنق صوته، ونفرت أوداجه، واضطربت كلماته، وهو يقول:

أقسم لك بكل يمين إن زواجك هذا لم يتم... لن تكوني لغيري ما دمت حياً!

ورانت على وجهه جهامة وقطوب، واكتست قسماته طابع الشراسة والعنف، فعاجل الفتاة توجس وحذر، وزوت بصرها في رقبة وجزع، وراحت تسائل نفسها: ما لها ترى فتاها على حال لم تعهده من قبل؟ ما لها ترى سحنته قد انقلبت سحنة نمر مفترس؟ أهذا "عبد السميع" الوادع الطيع الذي لم ينشب بينه وبين أحد يوماً شجار؟

ولبث الفتى على حاله هنيهة مكروب الأنفاس، يبعث من عينيه نظرات شيطان... فأقبلت عليه الفتاة تسكن من روعه، وتهدئ من ثائرته، وهي تقول:

روّق دمك يا "عبد السميع"... وخل عنك الطيش والنزق!

فاستلان الفتى يقول:

ماذا تريدين مني أن أفعل؟

ـ ليس لنا إلا أن نتذرع بالتؤدة والصبر.

ـ إلى متى نصبر؟ أننتظر حتى يخرج الأمر من يدنا؟ أنسكت حتى يتم كل شيء؟

فأشرعت الفتاة حدقتيها إلى السماء، كأنها تخصها بقولها: الأمر كله بيد الله... وإنا لمشيئته خاضعون!

فهمهم "عبد السميع" ساهم النظرات يقول:

لم يبق لي في قلبك حب يا "صابحة"... ليس هذا شأن المحبين!

فصمتت الفتاة برهة، ثم انخرطت في البكاء دفعة، فاضطرب الفتى في وقفته، ومال عليها يأخذ بيدها إلى داخل المخزن المهجور، وأجلسها هنالك على كومة من الهشيم، وطفق يمسح دمعها، ويقول لها في تلهف وتوجع:

لا تبكي يا"صابحة"... فإن بكاءك يذيب قلبي... إني على ثقة بحبك إياي... ولكن هذه الخطبة وقعت من نفسي كأنها طعنة خنجر... لن أدخر وسعاً في سبيل فسخ هذه الخطبة...

سـأعود إلى أبيـك أخطبـك إليـه، ومـا أحسـب هـذه المـرة يردنـي كما فعل من قبل.... ليوافقنّ... ليوافقن...

فحدقت إليه "صابحة" وعيناها مخضلتان، وسألته:

كيف يوافق أبي على خطبتك إياي؟ كيف تفسخ خطبة "شيخ البلد"؟

فهم "عبد السميع" أن يتكلم، ولكن شرق بريقه، فلم ينبس، وظلت الكلمات تتقاتل بين شدقيه، وعيناه تبصّان، وأخيراً أفلتت منه هذه الجملة:

ليوافقن أبوك على أن أخطبك لي... الوسيلة هذه المرة حاضرة...

ـ أية وسيلة؟

فجعلت حدقتاه تدوران في محجريهما، لا يقر لهما قرار...

وبعد قليل مدّ يده إلى كتف الفتاة يهزها ويقول:

عندي المهر... عندي المهر!

فرفعت الفتاة يدها إلى عينها وأنفها، تمسحهما بكمها. وتألقت على وجهها ابتسامة، وحملقت تقول:

أعندك المهر؟... أعندك ثلاثون جنيهاً؟

ـ عندي... عندي!

ـ معك؟

ـ معي... في جيبي... أتريدين أن تريها؟

ثم دس يده في جيبه، وأخرجها تحمل رزمة من ورق النقد، ومضى يقلبها أمامها مهتاج الأوصال، وهو يعدّ بصوت مسموع:

خمسة... عشرة... خمسة عشر....

فلما بلغ الثلاثين سما إلى الفتاة ببصره يقول:

هذا مالك يا "صابحة"... هذا مهرك الذي سأقدمه غداً إلى أبيك... تأمليه... خذي هذه الأوراق فقلبيها بين يديك، إنها لك وحدك!

وألح عليها في أن تأخذ ورق النقد، بيد أن "صابحة" أبت أن تمد إليه يمينها، إذا كانت شاردة الفكر، تسأل:

من أين لك هذا المال يا "عبد السميع"؟...

فعقد الفتى ما بين عينيه، وأجابها:

ليس لك أن تعلمي.. حسبك أن مهرك حاضر!

وتكلمت "صابحة" كأنها تناجي نفسها بقولها:

ليس لك دابة فأقول إنك بعتها ورجعت بثمنها!

ثم سكت لحظة تحدق إليه وتقول:

وليس لك اقارب فأقول إنهم أقرضوك أو أعانوك!

فقال "عبد السميع" ثائراً:

لم أستدن من أحد قريب أو غير قريب!

فاستكملت الفتاة قولها:

أما سيدك الشحيح "حسن آغا" فهيهات أن يجود لك بشيء... أنّى لك هذه الجنيهات الثلاثون؟ أصدقني!

فاغتم الفتى لهذه المحاصرة التي تديرها حوله الفتاة، وقال في شدة واحتداد:

لا شأن لك بشيء من هذا كله... لست مسئولة!

فقالت في اهتمام:

أريد أن أعلم مصدر هذا المال....

فصاح يقول:

لقد هبط عليّ من السماء... فلا تسأليني من أين؟

فواجهته الفتاة بنظرات استشفاف تتوقد فطنة وفراسة، وهو يحاول أن يزيغ عنها بصره، كأنه يحذر أن تقرأ ما ستر من أمره...

ولبثت الفتاة وقتاً وهي تتكشف وتتعرف، ثم ضربت صدرها بيدها وهي تقول:

أخشى أن يكون هذا المال مال "حسن آغا"... وأنك مددت إليه يدك!

فصرخ "عبد السميع" مرتبكاً يقول:

ما هذا الكلام الفارغ؟ قلت لا شأن لك بشيء من هذا كله... أنت تقحمين نفسك فيما لا يعنيك!

ـ الأمر واضح يا "عبد السميع"... ليس المال مالك، فردّه مكانه، واستعذ بالله من الشيطان!

ـ إنه لي، أتصرف فيه كما أشاء...

ـ بل إنه ليس لك... فلا تكابر!

ـ أتريدين أن تضيع الفرصة، وأن تتعذّر عليّ الخطبة، فيتم "لشيخ البلد" أن يفعل ما يريد؟

ـ لا يكون مهري من مال حرام!

فهاج الفتى قائلاً:

ما هذا الهراء؟ سأدفع بهذا المال إلى أبيك وأنا أخطبك إليه... وستكونين لي على الرغم من كل شيء!

فأقبلت عليه "صابحة" تلاطفه، وتقول معسولة الحديث: لا يسؤك قولي يا "عبد السميع"... إني أحبك، وأحب الخير لك، وهذا المال الحرام لا بركة فيه، ولا نفع منه... وإن زواجاً يتم به لا يرضى الله عنه!

وتساقطت العبرات على وجنتي "صابحة" وهي تتضرع إلى فتاها قائلة:

عدني أن تعيد المال إلى صاحبه!

ـ لن أعيده إليه... لقد أصبح في حوزتي... لا يستطيع أحد أن يسترده مني!

فشرقت الفتاة بدمعها، وصاحت مخنوقة الصوت:

لا يكون مهري مالاً مسروقاً... لا أقبل... لا أقبل أبداً!

فمال عليها يكلمها مشبوب الفؤاد:

وأنا لا أطيق التخلي عنك يا "صابحة"... محال أن تكوني لغيري زوجاً!

والتصق بها يصعّد أنفاسه المتوقدة، وهو يقول راعش الصوت:

من أجلك يا "صابحة" سرقت هذا المال... سرقته من خزانة "حسن أغا" سيدي ووليّ نعمتي... ولكنها سرقة يعلم الله أنها عادلة... إني فقير معدم، لا حول لي ولا طول، وقد ابتلاني الله "بشيخ البلد" ينافسني فيك بجاهه وثرائه...

فبأي سلاح تريننني أحاربه، وأنا كما تعهدين؟ لقد سرقت، ولست أبالي أن أسرق، إذا كان ذلك سبيلاً إلى أن نحيا معاً حياة الهناءة والنعيم... لقد قتلني نبأ خطبتك "لشيخ البلد"، فقطعت ليلي جالساً القرفصاء، جاحظ العينين، وبغتة خطر لي أن أفعل ما فعلت... أن آخذ هذا المال. لا أدري كيف ساقتني قدماي، فمددت إليه يديّ... وما أكثر ما وجدت في الخزانة من مال، ولكني لم أصب منه إلا مهرك المنشود... قليل من كثير، وقطرة من بحر... ويشهد الله أني أنوي ردّ المال الذي أخذته حين يتيسر لي في قابل أيامي أن أرده شيئاً بعد شيء...

ذمتي لا تقبل مال أحد... حدّ الله بيني وبين مال الناس!

وكانت "صابحة" ما برحت تنشج مكتئبة النفس، وشعرت بأنفاس فتاها تسبح على وجهها، وبفمه يلامس وجنتها، وهو يدس ورق النقد في كفها، ويقول لها في صوت أبحّ كأنه فحيح الأفاعي:

أحبك يا "صابحة"... لا عيش لي إلا بك يا "صابحة"... أنت روحي... أنت نور عيني!... ذلك هو مالك فخذيه، وتصرفي كما تشائين فيه...

وطفق "عبد السميع" يلتهم من خدّ الفتاة قبلات تلو قبلات، فكانت "صابحة" تشعر بهذه القبلات كأنها لسعات عقرب... كما أحست يدها لذع النار حين لمست ورق النقد... فإذا هي تدفع فتاها عنها، وتنأى بنفسها عنه، وهي تقول:

دعني يا "عبد السميع"... دعني!

ووقعت عينها عليه، فأنكرت ما ترى من سحنة راعبة تتمثل فيها نزعات الشر والأذى والافتراس... ولكأن هذا الوجه صفحة من الدم قد علتها غبرة قاتمة... فما لبثت "صابحة" أن استشعرت مسّ الخوف يسري في حناياها.... فظلت تتنأى عن الفتى، وهي تتوسل إليه أن يدعها وشأنها، ولكن "عبد السميع" لم يكن يفهم مما تريد شيئاً، وأخذ يقبل عليها في

تلك الهيئة الشنعاء، فلمح وجهها تتقلص قسماته، وشفتيها تتأهبان لإطلاق صرخة...

فما أسرع أن قفز إليها يحصرها بين ذراعيه، ويحتضنها بشدة، وهو يرغو ويهدر....

ونشبت بين الفتى والفتاة معركة كانت الغلبة فيها له.... فانبعثت "صابحة" تطلق الصيحة بعد الصيحة، ولكن "عبد السميع" أطبق على فمها بيده الغليظة، يرد صراخها إلى حلقها مقهوراً مهزوماً...

على أن الفتاة استطاعت أن تزحزح يده شيئاً عن فمها، وهي تقول:

اتركني... لا أقبلك... اذهب عني... إني أكرهك!

فأجابها الفتى بصوته الأجشّ الموحش:

لن تكوني زوجاً لغيري... أنت تحبينني وأنا أحبك!

ـ بل أنا أكرهك... أكرهك!

فضغطها الفتى ضغطة عنيفة، فندت عنها صرخة عالية مفزعة، تجاوبت بها أرجاء المخزن، فاضطرب "عبد السميع" في موقفه، وخيل إليه أن الناس موشكون أن يحدقوا به، وأن الفتاة مفلتة من يده، صائرة إلى سواه... إلى "شيخ البلد" غريمه!

وأحس الرجفة تهزّ كيانه، وكأن غمامة تنبسط على عينيه. وإذ بيديه تحوطان الفتاة فتضغطان عنقها، وتكتمان أنفاسها... على حين كان فمه يجمجم هذه الكلمات كأنها خوار ثور محتبس:

لن تتزوجي "شيخ البلد"!... لن تكوني لأحد دوني!... أنت لي وحدي!

وتداعت قوى الفتاة، فتراخت عنها يدا "عبد السميع" فإذا هي تتهاوى على كومة الهشيم...

ومكث الفتى يحدق إليها لحظات، وأخذ يستعيد وعيه، ويثيب إليه رشده، فركع بجوار فتاته يهزها، وهو يهيب بها قائلاً:

انهضي... انهضي!

واندفع يلكزها بقوة، وقد علا صوته في رعشة يقول:

ما لك لا تجيبين؟... انهضي!

وأخذ بكتفها ينهض بها، فألفى رأسها يميل على صدرها، وإذا بجسدها يسقط من بين يديه، لا حراك به.

فسدّد الفتى نظره إليها في لوعة وفزع، وهو يرتد عنها خطوات، وما عتم أن صاح:

كلا... لم أفعل شيئاً!

ثم انكفأ على التراب يمرّغ وجهه فيه، وينبش الأرض بأظفاره، وهو يئن ويتوجع.

وكان "حسن أغا" آنئذ يجوز بتلك البقعة يتطلع، وقد أكب على سبحته يتمتم، وهو يجرّ قدميه في خفيه الباليين، تكسوه جبته الناصلة التي تكاثرت في جوانبها الرقاع، وعلى رأسه طربوشه الأزعر يتراخى على أذنيه.

وبينا هو سائر إذ تراقى إلى سمعه أنين، فدنا من المخزن يتبين، فرأى "عبد السميع" على حاله يتقلب، فهرع إليه يقول:

ماذا بك يا "عبد السميع"؟

فسما إليه الفتى برأسه، ووجهه مغبر، وعيناه تغشاهما العبرات، وقد بسط يده برزمة ورق النقد، وهو يقول في حشرجة المحتضر:

دونك مالك... حدّ الله بيني وبينه!

فسرعان ما لقف "حسن أغا" رزمة الورق، وهو يتفحصها ويسأل:

ألم تمدّ يدك إلى سواها؟

فصاح به الفتى محنقاً:

ابعد عني... دعني!

وفي هذه اللحظة، لمح "حسن أغا" جثة الفتاة على الهشيم ملقاة، فتداني منها مذعوراً يستكشف ويتعرف، فما إن تجلت له حقيقة أمرها، حتى اضطرب في وقفته، وارتد إلى الوراء راكضاً يصيح:

إلى السارق... إلى السارق... إلى القاتل... إلى القاتل!

فاته القطار...!

بلدة "المحاسنة" قرية من تلك القرى القابعة في صميم الريف، لا يميزها إلا شيئان: تلك المحطة العجوز الشوهاء التي يقف عليها خلال اليوم قليل من قطارات الركاب في ذهاب وإياب، وذلك المكتب الذي يحمل على جبينه لوحاً شاحباً ترياً، تقرأ عليه ما تبقى من حروف كلمة "بريد".

في هذا المكتب يتربع "العنتري أفندي" يصرّف الأمور، وهو رجل تكاملت له الأربعون، ظل يعمل في مكاتب البريد منذ التحق بخدمة الحكومة، وما زال يتنقل من صقع إلى صقع حتى اطمأن به المقام وكيلاً لمكتب بلدة "المحاسنة"، فلبث بها قرابة خمسة أعوام لا يصافح وجهه بلداً سواها.

وكان "العنتري أفندي" يقضي في هذا المكتب أكثر يومه، جالساً على كرسيه، مقبلاً على كومات الرسائل يطبعها بخاتمه، ويقذف بها ذات اليمين وذات الشمال، وهو

مهتاج الخاطر، مقطب الجبين، فلا يكاد يلمح غلامه الذي يدعوه "بالمراسلة" حتى يصب عليه جام غضبه، آخذاً عليه صنوفاً من التقصير والإهمال، ناقماً على تلك الساعة التي رمته بهذه البلدة الحقيرة المغمورة، لاعناً أولئك الأهلين الأجلاف الذين يسببون له ما لا يطاق من المضايقات، فإن سئم لسانه تكرار الشتم والسباب لغلامه ولأهل القرية عاد باللائمة على نفسه المتطامنة الكسول، تلك التي رضيت بالخنوع والاستسلام.

وبمد فترة تمتد يد "العنتري أفندي" إلى درج مكتبه، ينبش فيه، فإذا هو يستخرج إضمامة في جانب من الدرج، وما هي إلا أن يبسطها بين يديه، ويتوسم ما ضمت من صور الغانيات وكواكب المسرح والسينما، تلك الصور التي كان يحرص على انتزاعها من الصحف والمجلات، ويعنى بحفظها في هذه الإضمامة ليتملاها حيناً بعد حين. فإذا قضى "العنتري أفندي" وطره من التوسم والتملي، وأرضى نزعة الشغف بين جنبيه، شاعت على أساريره سارية من الطلاقة والارتياح.

وينتهي "العنتري أفندي" من عمله، ويغلق باب مكتبه، فيبرز إلى الطريق متهالكاً في سترته الصفراء الكاسفة ذات

الأزرار النحاسية الصدئة، وهو يجرّ رجليه في نعلمها البالية العفراء، حتى إذا بلغ قهوة "مانولي" اقتحمها في غطرسة وتأمّر، ولا يلبث أن يقتعد كرسيه المختار في صدر المشرب، وما هي إلا أن يوافيه "مانولي" بقدح القهوة وبالجوزة متوهجة عليها النار، فينقل فمه بين القدح يرتشف منه، والجوزة يجتذب أنفاسها، وعينه مشرعة إلى الطريق تروح عليه مواكب السابلة وقطعان الدواب مثيرة حولها سحائب الغبار.

ولا تكاد الجوزة تلفظ على شفتي الرجل آخر أنفاسها، حتى يقوم من مكانه آخذاً سبيله إلى "جسر الترعة" يذرعه، ملتهياً بمرأى نساء القرية وهن يرددن الماء ليملأن الجرار، ويصدرن عن الترعة آيبات إلى الأكواخ... وكثيراً ما قام بنفسه أن يتدانى منهن، وأن يبادئهن بالحديث والمداعبة، ــ ولكنه كان في كل مرة لا يكاد يهم بذلك حتى يحجم هيّاباً، ويرتد خجولاً، وهو يصعد من صدره زفرات اللوعة والتحسر!

ولا يفوت "العنتري أفندي" أن يلزم مكانه من الجسر، حتى يجوز "القطار السريع" أمام عينيه، يهز الأرض بسطوته ويملأ الفضاء بزئيره، فيثير في نفس الرجل نشطة وحيوية، ويحمل إليه نفحة من عالم اليقظة والنور.

ويختم "العنتري أفندي" طوفته بالتعريج على حانوت "عم ربيع" الذي لا تدري أي شيء هو مختص بالاتجار فيه، فلك أن تقول إنه حانوت لا يحوي من شيء، ولك أن تقول إنه حانوت يتوافر فيه كل شيء!

في هذا الحانوت يستطيع "عم ربيع" أن يسد جوعة "العنتري أفندي" حين يحل به طالباً الطعام، فيجهز له ما تيسر، ويبسط له من طوارئ الأخبار ومن الطرف والنوادر ما فيه متعة وسلوى.

و"العنتري أفندي" يعرف فضل يومي "الجمعة" و"الأربعاء" على سائر أيام الأسبوع، فهو يظفر في هذين اليومين بألوان من الحياة يستروح فيها بعض الترفيه والمتاع.

في يوم "الجمعة" يحرص على أداء الفريضة في زاوية البلدة، لا يعنيه إلا أن يتفرج بمنظر الوافدين عليها للصلاة، وهم متزاحمون على حوض الماء يتوضأون، مستمتعاً إلى ما يخوضون فيه من أشتات الأحاديث.

وهو في يوم "الأربعاء" يحرص على أن يشهد "سوق الأسبوع" لا ليشتري أو ليبيع، ولكنه مع ذلك لم يكن يدع شيئاً مما يعرض في السوق إلا ساوم فيه، وإنه ليغلو في

مماكسته للباعة، حتى ينتهي أمره معهم إلى مشاجرة وعراك، فإذا به يتوسط الحلقة منتفخ الأوداج، يلوح بيديه، ويرفع من صوته، منـدداً بأولئك الباعة الذين خربت فيهم الذمم، واستبدّ بهم الشره، فراحوا يتكالبون على كسب حرام...

فإذا فصل عن السوق، مضت به إلى البيت أتان عجفاء، وقدماه متدليتان تشقان على أديم الأرض خطين واضحين يباريان ما تركته حوافر الأتان من آثار...

وتذهب به الأفكار في مسيره كل مذهب، فتراه ينحى على شعرات لحيته التي لم تمسها الموس منذ أيام، مقتلعاً إياها من منابتها، دون وعي. وفي الفينة بعد الفينة يتصيد ما تشعث من شاربه، فيقرضه بأسنانه في غير إشفاق.

ولم يكن في القرية أحد يراه "العنتري أفندي" كفئاً لصداقته، فعاش الرجل فرداً لا يأنس إلى جليس، طابعه التجهم والعبوس. حتى إن "ناظر المحطة" على رفعة مقامه وعلو سنه لم يكن يحظى منه بألفة وإيناس، فهو ـ فيما يراه "العنتري أفندي" ـ رجل خامل الروح، تافه الشخصية، بغيض... على أن ذلك كان دأبه في معاملة كل من تعاقبوا على نظارة المحطة خلال إقامته في البلدة خمس سنين!

ويوماً هبط المحطة ناظر لها جديد، فكان لا بد أن يخف إليه "وكيل البريد" يستقبله ويهنئه، فلم يجد فيه شيئاً يجتذب هواه، بل راعه منه ما يخشاه، إذ كان الناظر الجديد هائل الجرم، مقطب الجبين... له عين براقة كعين الصقر، وله شارب غزير متمرد الأطراف!

وتواردت أيام، واستطار في البلدة أن الناظر الجديد له زوجة سودانية هي آية في الملاحة والحسن، وأنها في زهرة العمر، رشيقة القدّ، ذات دل وظرف، لها فن المتحضرات في حسن التزين، ولها ذوقهن في وسائل العيش.

وكانت أنباء هذه المرأة تتزاحم على سمع "العنتري أفندي" يوماً بعد يوم، تتجلى فيها خلابة الوصف وروعة التصوير، فجعل يرهف السمع لهذه الأنباء شيئاً بعد شيء، بل إنه حرص على أن يتلقّطها من كل سبيل...

وعجب الرجل من أمره بعد ذلك، كيف إذا استرخى على مقعده، تمثلت له زوج "خميس أفندي" ناظر المحطة طيفاً رفافاً يبعث في قرارة نفسه نشوة الأحلام.

وبينما يكون "وكيل البريد" في غمرة من عمله، منكفئاً على الرسائل ينهال عليها بالخاتم المعهود، وعن كثب منه

ركام اللفائف يتناولها فيقذف بها هنا وهنالك، وقد وقف تجاهه غلامه الذي يدعوه "بالمراسلة" يتلقى أوامره بلا حساب ـ إذ به يقبل على الغلام بغتة يسأله:

ألم يقع بصرك على زوجة "ناظر المحطة" يا ولد؟

فيفغر الغلام فاه في ابتسامة بلهاء، وهو يقول:

لم أرها قط يا أفندي!

فيحدجه الوكيل بنظرة إصغار، ويغمغم قائلاً:

ماذا تعمل إذن في هذه البلدة يا غبي؟

وألفى "العنتري أفندي" نفسه على توالي الأيام متوداً إلى "خميس أفندي" ناظر المحطة الجديد، راغباً في أن تتوثق بينهما أواصر الإخاء، فقد استبان له أنه كان مخطئاً في الإعراض عن ذلك الرجل، مسيئاً فهم شخصيته الجديرة بالتكريم والإكبار، ومن ثم أصبح الآن يختلف إلى المحطة، بعد أن كانت قدمه لا تطؤها إلا في الندرة. وحين يقف "قطار الركاب" على رصيف "محطة المحاسنة"، ويهلّ الناظر من حجرته متخطراً كالضرغام الركين، يتراءى في ظله "العنتري أفندي"، وهو يكثر من التطلع إليه، ولا يفتأ يفرك يديه، وعلى فمه تنطبع ابتسامة التودد والزّلفى...

ونمى إلى "العنتري أفندي" أن زوجة "ناطر المحطة" قد ألفت أن تخرج في الفترات أصيلاً إلى دار العمدة تزور زوجه، وأنها تجوز في طريقها إلى الدار بحانوت "عم ربيع"... فلم يكد "العنتري أفندي" يعرف ذلك حتى أدخل على برنامجه اليومي تعديلاً جديداً لم يكن له به عهد.

ما إن يرفع "شيخ الزاوية" صوته بأذان "العصر" حتى يتراءى "العنتري أفندي" مغادراً بيته، حليق اللحية، نظيف الملبس، يلتمع حذاؤه، وهو يسير متبختراً يتفقد هندامه، ومن ورائه غلامه يتبعه حاملاً كرسياً ذا مسندين، ووجهتهما معاً حانوت "عم ربيع" فيقتعد الرجل كرسيه واضعاً ساقاً على ساق، وفي عينيه بريق الترقب، وعلى وجهه إشراقة الأمل...

وقد ينقضي الأصيل، وتغرب معه الشمس، وقد ذهب الترقب سدى، وضاع الأمل هباء، وحرمت عين "العنتري أفندي" أن تقر بمرأى الغادة السودانية المنشودة، فينهض الرجل في غبشة الليل، راجعاً إلى بيته، محني الهامة، يقرض بأسنانه ما تشعث من شاربه، وقد غشيه سهوم...

على أن الشمس كانت تطلع على "العنتري أفندي" في صبيحة غده، تجدّد من ترقبه، وتحيي من أمله، فلا تكاد

الزاوية تعلن أذان العصر حتى يأخذ سبيله إلى حانوت "عم ربيع"، وخلفه غلامه يحمل له الكرسيّ العتيد!

وذات أصيل، بينما كان "العنتري أفندي" متسنماً كرسيه، على باب الحانوت، إذ أحس برعشة تسري في أوصاله، وارتباك يسود حركاته ونظراته... لقد مرت به الحسناء السودانية، فعلقت بها عينه منذ لاحت من بعيد، حتى طوتها معاطف الطريق، ولكنه على الرغم من ذلك طفق يسائل نفسه:

ماذا رأى منها؟ وماذا استبان له من سماتها وقسماتها؟

فلم يجد عند نفسه من جواب، وقصارى أمره أنه مسحور العين بما رأى، وأنه عامر القلب من غبطة وانتشاء.

وهكذا أصبح "العنتري أفندي" يجري في حياته على نظام جديد، فلم يعد يقصد إلى قهوة "مانولي" يقضي فيها ساعة الأصيل، ولم يعد يذهب إلى "جسر الترعة" ليرقب حاملات الجرار من نساء القرية، وأمسى "القطار السريع" يمر في جلجلة ودويّ، دون أن يوليه الرجل نظرة أو يلقى له سمعاً... أما "سوق الأسبوع" فقد تخلف عنها "العنتري أفندي" فأراح واستراح، وأما صلاة "الجمعة" فلم يعد يجتذبه منها ما كان يشهده فيها من قبل.

لقد صار "العنتري أفندي" على مر الأيام رسالة بريدية حية تردد إلى حانوت "عم ربيع" أصيل كل يوم بانتظام... وتسنّى "لوكيل البريد" بهذه المثابرة الموصولة أن يرى زوج "ناظر المحطة" غير مرة، وأن يتملى فتنتها على مهل. وكان مما يهزّ نفسه نحوها شعوره القويّ بانها توليه لفتة من طرف خفي، وعلى فمها تختال ابتسامة فتانة خلوب.

ولطالما بنى "العنتري أفندي" عزمه على أن يرد تحية المرأة بمثلها، ولكن كانت تخذله إرادته، ويقعد به جموده، فلا يملك لأوصاله تصريفاً.

ونبتت بين "العنتري أفندي" و"عم ربيع" مودة وائتلاف، فهما يقضيان الوقت أمام الحانوت يخوضان في شجون من الحديث، وكان "عم ربيع" أذناً صاغية يجد فيها "العنتري أفندي" مجالاً طيباً كريم الساحة، يودعه كل ما يجيش في وجدانه من عواطف ومشاعر ونزعات.

وفي أكثر من مناسبة سمع "عم ربيع" جليسه "العنتري أفندي" يتحدث إليه في خصائص السودانيات، وما يتميزن به من طراوة أجسام، واستواء قامات، وما يتجلى في نفوسهن من حيوية العاطفة وحرارة الشعور!

وكان "العنتري أفندي" وهو يتوخى هذا الحديث، يبدو وهاج النظرات، مشبوب الشغف، قويّ الحنين، لا يمل الترداد والتكرار ولا يبالي علائم السأم التي تتوضح على وجه "عم ربيع" وهو يعاني مرارة الصبر والاحتمال.

وأحس غلام "المراسلة" بأن سيده "وكيل البريد" قد تبدلت حاله، وأنه قد عراه انقلاب، فهو يدخل المكتب ناشطاً، بسام المحيا، أنيق البزة، ملتمع الحذاء، يلقي على غلامه تحية الصباح في وداعة وتلطف، وهو لا يفتأ يجاذبه أطراف الحديث في غير تطاول عليه، ولا أنفة منه. وإنه في شتى شئونه لهيّن لين لا عنف فيه ولا وعورة، حتى إن الرسائل لم يفتها نصيبها من هذا الانقلاب، فقد أصبحت الآن تتلقى وقع "خاتم البريد" من يده في رفق وهدوء!

وأكبر ما فرح به غلام "المراسلة" من آثار هذا الانقلاب أنه قد انزاح عن عاتقه ذلك العمل الذي كان يؤديه على كره، وهو القيام بغسل ثياب سيده، فقد اختار "العنتري أفندي" إحدى نساء القرية لتقوم بغسل ثيابه، فكانت هذه أول امرأة تدخل بيته منذ هبط القرية.

وحدث ذات يوم أن دخل الغلام بيت سيده على حين غفلة، فرأى ما هاله وأذهله... رأى هذه المرأة واقفة عن كثب من طشت الغسيل، وهي في ثوبها الذي يكشف عن ذراعيها وساقيها، وقد اعتنقها "العنتري أفندي" في وجد وتوقد وهيام... فارتد الغلام عن البيت متسللاً يحاول أن يكتم اهتياجه...

وكثيراً ما كان سيده يدعوه في العشيّ ليأتنس به، ويبدد معه مكاره الوحدة، فإذا طاب لهما السمر، تطلع "العنتري أفندي" إلى السماء، وجعل يترنم بأغنية لم يكن يمل تكرارها، وهي:

القمر له ليالي... يطلع لا يبالي!

وكان يطلب إلى غلامه أن يردّد معه مقاطع الأغنية، فيجيبه إلى ذلك في طرب وابتهاج.

ويخرج الغلام بعد هدأة من ليل، فيخلو "العنتري أفندي" بنفسه، متخذاً له مجلساً بجوار النافذة، مطلقاً لفكره عنان الخيال، فإذا به يحوم بنظراته في فضاء الطريق، وقد شاعت فيه الحلكة، وخيمت عليه الوحشة، ولا يفتأ الرجل محدقاً حياله، مرهف السمع، مشبوب الهيام، يؤمل أن يلوح لعينيه

طيف من يحب، مسترقاً إليه الخطا، قاصداً أن يطرقه في جنح الظلام!

وقد صب "العنتري أفندي" عبقريته ولباقته في إظهار الولاء لناظر المحطة الجديد، يتطوع له بالخدمة، ويتحدث عنه بالخير في كل مكان، ويغلو في الحفاوة به جهده، بل لقد ألزم نفسه بأن يهدى إليه في الفينة بعد الفينة طرائف من خيرات الريف، فلم يجد "ناظر المحطة" إزاء هذه المودة والتلطف إلا أن يدعو "وكيل البريد" إلى تناول الغداء معه في بيته، فتقبّل الرجل هذه الدعوة والدنيا لا تكاد تسع فرحته واغتباطه، وقدم على بيت الناظر في اليوم الموعود يتألق كالعروس واتخذ مجلسه مذهولاً تستغرقه الأخيلة والأحلام. وقضى وقته مع مضيفه يستمع إلى حديثه الفياض. لقد لبث "خميس أفندي" يسرد ما قام به في حياته من خطير الأعمال، وما جدّد من نظم المحطات، وما احتمل من جسيم التبعات. فكان "العنتري أفندي" يمجد عمله، وهو يردد كلمته المألوفة:

الله... الله... عظيم... عظيم!

وفيما هو يصغي إلى جليسه، كانت تتهادى إلى أذنه خفقات أقدام رقاق، تصحبها وسوسة أساور ورنات خلاخل، فينصرف إليها بسمعه كله، وقد هزته نشوة، وازداد قلبه من خفوق.

وتكررت دعوات الناظر الجديد لوكيل البريد، واستفاض حديث الرجل فيما اضطلع به من خدمات لمصلحة السكة الحديدية، خدمات لو كوفئ عليها حق المكافأة، لكان الآن على رأس المناصب ينعم بعليا الدرجات. فلا يملك "العنتري أفندي" إلا أن يعلو صوته بكلمته الخالدة:

اللّه... اللّه... عظيم... عظيم!

وهو في وليجة نفسه مرهف الحس، دقيق الترقب، يتسمع لكل نأمة تجري في البيت، حتى إنه لا تفوته الهمسات من وراء الحجرات...

وكانت فطنة "العنتري أفندي" تأبى عليه إلا أن يؤمن بأن كل ما يجري في البيت من حركات وأصوات لم يكن إلا رموزاً تبعث بها زوجة الناظر، حاملة معها معاني التواصل والتودد والترحيب.

وفيما كان "العنتري أفندي" صبح يوم على مكتبه، يدق الرسائل بخاتمه، إذ دخل عليه رسول من قبل "ناظر المحطة" يبلغه أن حضرة الناظر سيهدي إليه ظهر اليوم لوناً طريفاً من الطعام يكون له غداء شهياً!

وعجل "العنتري أفندي" إلى بيته ينتظر الهدية المرموقة، ويعدّ العدة لاستقبالها، ورأسه تتناوح فيه الأخيلة والأطياف. وجاء رسول بيت الناظر يحمل إليه صينية تتوسطها صفحة من "الويكة" الفاخرة، ذلك المطعم الذي لا يجيد طهوه إلا الماهرات من بنات "السودان"... فشمر "العنتري أفندي" عن ساعد الجوع، وقد التهبت شهيته، وجاشت مشاعره، وأقبل يلتهم الطعام، وهو يتمثل في خاطره تلك السودانية الحسناء، متلطفة به، ترنو إليه، في فتنة وإغراء، وكأنها تقبل عليه تسأله:

كيف وجد مذاق طعامها الذي طهته له، تخصه به؟

ولم تخامر الرجل خلجة من شك في أن أمر هذا الغداء لم يكن إلا من تدبير زوجة الناظر، فهي التي تخيرت صنفه، وهي التي اقترحت إهداءه، وما زوجها حيال ذلك كله إلا "أداة تنفيذ"!

ولبث "العنتري أفندي" في هذا الأفق الجديد من حياته فترة طيبة، ينعم بالأنس والبهجة والأماني العذاب.

وفي ضحوة يوم دخل غلام "المراسلة" على "وكيل البريد" مهتماً يقول:

ألم تسمع الخبر يا أفندي؟

ـ أي خبر يا ولد؟

ـ نقل حضرة الناظر.

وبوغت "العنتري أفندي" فغص بريقه، وبقي هنيهة لا يملك أن ينبس. ثم نهض دانياً من الغلام محملقاً فيه يقول:

نقل حضرة الناظر؟ كيف؟!

وأخذ بكتف الغلام يهزه، وهو يقول:

من اين علمت الخبر؟

ـ من المحطة.

وأسرع الرجل يغادر مكتب البريد، قاصداً المحطة، مندفعاً إلى حجرة الناظر، فما إن دخلها حتى واجه "خميس أفندي" بقوله:

أيّ خبر هذا الذي سمعته؟

فابتسم له الناظر قائلاً:

هـذا مـا كـان... تلقيـت أمـراً بنقـل عاجـل... سـأرحل في الغداة!

فامتقع "العنتري أفنـدي" وارتعشـت شـفتاه، دون كـلام.... فلاطفه "خميس أفندي" بقوله:

إنـي أعـرف شـعورك، وأقـدّر صـداقتك... ولعـل فراقنـا لا يطول!

وخرج "العنتري أفندي" يدور رأسـه، ويزيـغ بصـره، واتخـذ سـبيله إلى مكتـب البريـد، فاسـتقبله الغـلام ترتسـم علـى فمـه ابتسامة بلهاء، وهو يقول:

ألم تجدني صادقاً فيما أخبرتك به؟

فحدجه الرجل بنظرة نكراء، وهو يقول له:

أراك لا تنشط إلا لأخبار السوء يـا غـراب البين... أنفضـت عن المكتب غباره اليوم؟

ـ نفضته يا أفندي؟

فمر الرجل بإصبعه على ظهر المكتب، وهو يقول:

كذاب... كذاب... المكتب يعلوه الغبار!

وما هي إلا أن هجم على الغلام، تارة يعرك أذنه، وطوراً يلكزه ويركله، حتى تركه بباب المكتب يتلّوى من الألم، وينخرط في البكاء.

وفي الظهيرة رئي "العنتري أفندي" سالكاً الطريق إلى حانوت "عم ربيع" وهو ساهم يقرض ما تشعث من شاربه، ووراءه غلامه يتبعه بالكرسيّ.

وأصاب الرجل غداءه أمام الحانوت لقيمات، ولبث هنالك ينتظر، متنقلاً بكرسيه يمنة ويسرة، وهو يوازن بين المواقع، ليختار أكثرها ملاءمة للترصّد، وأحسنها تمكيناً له من التملي وإنعام النظر...

وطال بالرجل الجلوس، وشقي ساعات بالانتظار، حتى انسدل أمام عينيه ستار الحلكة، فلم يدر أظلمة نفسه هي أم ظلمة الليل؟!

ونهض "العنتري أفندي" وقد خاب أمله في أن تكتحل عينه بمرأى الغانية السودانية في ليلة الرحيل...

وعاد إلى بيته منهوك القوى، كسير الفؤاد، يحاور نفسه: ماذا أبطأ بها عن الخروج عصر اليوم؟

أتراها أشفقت على نفسها وعليه من نظرات التناجي في ساعة التوديع؟

وعانى "العنتري أفندي" ليلة ليلاء، ينبو وساده به، ويشتد أرقه وقلقه، حتى انشق أمام عينيه عمود الصبح، لم يذق في ليله غمضاً...

وما هي إلا أن ألفي جسمه يتثاقل، وأعصابه تخمد، فملكه سبات عميق.

ولم يوقظه إلا طرق عنيف بالباب، فإذا غلامه يخبره بأن الساعة قد جاوزت العاشرة، وأن السائلين عن وكيل البريد كثير، وأن المحطة تحفل بمن قدموا يودعون الناظر المنقول. فهبّ الرجل مذعوراً عجلان يسبّ غلامه، ويصبّ على رأسه جام غضبه، آخذاً إياه بأنه قصّر في الحضور لإيقاظه في البكور.

وما هي إلا هنية حتى كان "العنتري أفندي" يعدو إلى المحطة عدواً، وهو يفتل شاربه، وينقذ ما يمكن إنقاذه من زيه المهوّش... وأقبل على المحطة حائر النظرات، سريع التلفت، يدفع بمن يصادفه في طريقه، حتى ألفي الناظر يتوسط المحطة في لمة من المودعين، فهرع إليه ينحني على يده، وهو يقول:

داهمني مرض كاد يحرمني أن أحضر لتوديعك... ولكني تحاملت على نفسي.

فربّت الناظر كتفه، يشكر له عاطفته، ويقدّر له موفور وفائه، على حين "العنتري أفندي" يحوّم بنظراته في أرجاء المحطة يتوسم ويتنسم، لعله يعرف مكان درته الغالية، ليتزود منها بالنظرة الأخيرة...

وجلجل القطار يتهادى إلى المحطة، فازداد "العنتري أفندي" من ترصّد وتطلع، وما إن وقف القطار حتى تخطر إليه "خميس أفندي" وهو يشدّ على أيدي مودّعيه، فلم يملك "العنتري أفندي" إلا أن يقول للناظر في لهفة وتشوّف:

والسيدة حرمكم؟... والسيدة حرمكم؟...

فأجابه الناظر، وهو يصعد المركبة:

لقد سبقتني بالسفر في قطار الصبح.

فوجم الرجل في وقفته، وعراه ذهول، ولم يشعر بنفسه إلا وقد غمره المودّعون متسابقين إلى تحية الناظر، تحت نافذة القطار، وهو على أهبة المسير.

وتحرك القطار في تؤدة وأناة، فأتبعه "العنتري أفندي" نظرات حسرة والتياع، وجعل القطار يتزايل رويداً عن عينيه،

فيشعر بأن جانباً من حياته يتزايل معه، جانباً كريماً كان أثمن كنز عنده، وأعز شيء لديه.

وأصيلاً دخل غلام "المراسلة" على "العنتري أفندي" يقدم له قدح القهوة، فما إن ارتشف الرجل منه رشفة حتى قال للغلام عابساً:

ما هذه القهوة الكريهة؟ إنها من بن رديء!

فعجل الغلام بقوله:

هذا هو البن أصنع لك منه القهوة كل يوم يا أفندي.

ـ كذاب... كذاب!

ـ والله العظيم.

فقاطعه الرجل صائحاً به، وهو يقذف بالقدح في وجهه:

أغرب عني، وإلا حطمت رأسك...

فأدبر الغلام هارباً.

وفي الصبيحة دخل الغلام على "العنتري أفندي" يخبره بمقدم المرأة القروية لتقوم بغسل ثيابه في موعدها الأسبوعي، فزمجر الرجل قائلاً:

وما صناعتك أنت إذن يا ولد؟... لا تدخل بيتي امرأة... اغرب عن وجهي!

وانسابت الأيام تذهب شيئاً بعد شيء بما كان يبدو فيه "العنتري أفندي" من أناقة وحسن هندام، وتغيض ما كان له من بشاشة ولطف وإيناس.

وأصبح الرجل يظهر في سترته الصفراء الكاسفة ذات الأزرار النحاسية الصدئة، متسكع الخطوات إلى قهوة "مانولي" يدخن الجوزة صامتاً ساهماً يخلط بأنفاسها زفراته الحرّى، ثم ينهض خاملاً إلى "جسر الترعة" يرمق حاملات الجرار بنظرات فيها لهفة وتحسر، حتى يمر به "القطار السريع" كالبرق الخاطف، فيبارح مكانه وهو يقتلع شعرات لحيته التي لم تمسها الموس منذ أيام، وينحى على ما تشعث من شاربه يقرضه بأسنانه، وهو يجر قدميه في نعله البالية العفراء...

وإذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، ذهب إلى الزاوية يفرج عن نفسه بمرأى أهل القرية، وهم يتزاحمون على حوض الماء يتوضؤون، مستمعاً إلى ما يخوضون فيه من أشتات الأحاديث.

وإذا حضر يوم الأربعاء قصد إلى سوق الأسبوع ممتطياً تلك الأتان العجفاء، ويظل في ممارسة ومكاس، لا يهدأ له حال إلا بعد تطاحن وعراك.

وإنه ليحرص في بعض الأصائل على أن يعرج على حانوت "عم ربيع"، يتصيد صاحب الحانوت، ليفرغ في أذنه ما يضيق به من سخط وتذمر وشكاة، ناعياً على هذه الحياة أن دأبها معاندة ذوي النفوس الطيبة، وتكدير ما تنطوي عليه جوانحهم من صفاء ونقاء، آخذاً على الأقدار أنها تفرق بين القلوب المتلاقية في غير رحمة ولا مبالاة، مستصغراً شأن هذه الدنيا التي يخطئ الناس في الإغلاء بها، وما هي إلا هباء في هباء!.

وبينما هو يحتدّ، إذا ببصره قد تطلع إلى الطريق الذي كانت تجوز به السودانية الحسناء، فيغشاه صمت، وينعم نظره كأنه يتفقد ذلك الشبح الغارب، مستعيداً ذكراه...

ولا يملك "العنتري أفندي" وهو على هذه الحال، إلا أن يبعث في صدره تنهيدة جياشة، ملؤها الحسرة على حلم جميل كان وانقضى!

ست الكل

كانت الشقة التي أسكنها في شارع "درب الجماميز" تطل على حانوت "المعلم ياقوت" الحلاق، وأنا يومئذ أجتاز مرحلة الدراسة في كلية الطب.

وتوثقت بيني وبين صاحب الحانوت صداقة الجوار على طول الأيام، فإذا مللت الدرس، أو تهيأ لي وقت فراغ، نزلت إليه أجالسه وأحاوره، فيطرفني بنوادره وتعقيباته على أحداث الحياة، طلّي الأسلوب، فطريّ الفكر. ومما حبب إليّ مجلسه أنه كان لين العريكة، وديع النفس، يتنكب عن الشر ويجنح إلى القنوع.

أما "عنقود" صبيّ الحانوت، فكان في أوج فتوته، فارع العود، عريض المنكبين، معجباً بنفسه، شديد الخيلاء... إذا غاب معلمه عن الحانوت تراءى بالباب عابثاً بشاربه الطرير، وهو يتعوج تارة ويرقّص حاجبيه تارة، مبعثراً نظراته المتبجحة

على من يعبرن الطريق، ولسانه يرشقهن بالبذئ من ألفاظ التحرش والمغازلة.

ولم يكن "المعلم ياقوت" يجهل بعض أخلاق الفتى "عنقود" وطالما عزّره وثار عليه، ولكنه كان سريع العفو عنه، راجعاً إلى البر به، ولا غرو، فالفتى ربيبه، كفله منذ الطفولة، والطريق يكاد يلتقمه بين المشردين الذين لا أهل لهم ولا كنف!

وكنت في بعض الأحيان أنصح لهذا الفتى أن يلزم جانب الحياء، وأن يكون مطيعاً لمعلمه. بيد أنه كان يستقبل نصحي بابتسامة استخفاف، ويتمادى فيما هو فيه من غواية، ولاحظت أنه يتحدث عن معلمه مستطيلاً عليه، متهكماً به، كأنه لا يباليه... فآليت على نفسي ألا أعاود التحدث إليه في إصلاح أمره، وشعرت نحوه باشمئزاز وزراية.

وشهدت "المعلم ياقوت" يوماً يكاد يتميز غيظاً من أفاعيل غلامه، ويشكو من تمرده وتنمره، فسألته:

لماذا لا يقصيه عنه ويستريح من شره؟

فأجابني في لهجته الفطرية الساذجة:

كـدت أقصـيه، لـولا أن زوجـتي اسـتعطفتني عليـه، وذكـرتني بأنـه يعـدم المـأوى إذا أقصـيته، وأنـي عنـه مسـؤول، فهو بمثابة ولدي الكبير، وله عليّ حق.

وحدق فيّ "المعلم ياقوت" وهو يكمل حديثه:

أصابت زوجتي فيما تقول. وما أطيب قلبها فيما تشير به...

لـو كـان هـذا الغـلام يسـتطيع الاسـتقلال بشـأنه لتركتـه يعول نفسه... أتظن أنه على طوله وعرضه يحسن أن يقص شعر غلام؟ وهل هو صالح لشيء؟ إني صابر عليه، لعل الله يهديه...

وانتهى إليّ من حديث الرجل أنه يقطن حيّ "السيدة زينب" غير بعيد من مقر عمله، وأن له من زوجته ابنة تبلغ الخامسة تسمى "ست الكل" يشتد بها تعلقه. وكثيراً ما جلبها إلى الحانوت معه، لكي تتسلى وتلعب على مرقبة منه. وقد شهدتها طفلة بسامة المحيا، لطيفة الروح، موفورة المرح، لا تفتأ تداعب عروسها القطنية الملونة ذات الأهداب الغزار... فإذا دنوت من الطفلة ملاطفاً أسألها:

كيف حالك يا عروس؟

واجهتني بنظرة وديعة، وهي تهمهم بالتحية والجواب. ثم تتشاغل بملاعبتها لعروسها القطنية في حياء، ولما حرصت على

أن أوافيها في الحين بعد الحين ببعض الحلوى، أنست بي، وركنت إلي، وجعلت تناقلني حديثها الوادع الرقيق.

وآسفني ذات يوم أن أرى "المعلم ياقوت" بادي الضعف ينتابه سعال مريب، فأخذتني به رأفة، وعرضت عليه أن أتفحصه، وأن أبذل في سبيل صحته قصارى خبرتي الجديدة بالطب، فتعذر علي وتأبّى، وقال في إيمان عميق:

يا سيدي... على الله الاتكال.

وتكاثرت الفترات التي يتخلف فيها الرجل عن عمله، وهو ينتحل لذلك شتى المعاذير، ولكن جسده كان يزداد على الأيام من هزال، ووجهه تعروه دكنة واحتقان.

ومرة أقبلت عليه أصافحه، فأحسست أنه محموم، فقلت له من فوري:

أنت تهمل صحتك يا "معلم ياقوت"... ما كان أولاك بأن تلزم فراشك اليوم.

فكسر عينيه صامتاً، سارح الفكر، ثم ابتسم ابتسامة محسورة يقول:

من يطعم أسرتي إن طاوعتك فلزمت الفراش؟ أفحسبت أن "عنقوداً" قادر أن يكسب لنا بضعة دراهم؟ وهل في مستطاع

هذا المتسكع على طوله وعرضه أن يقص شعر غلام؟ قلت لك الاتكال على الله يا "دكتور"!

على أنه اضطر أن يحتبس في فراشه بعد أيام، وعدته في داره، مصطحباً أحد الأطباء المتخرجين، وزاولت معالجته ومعاونته بقدر المستطاع، حتى خفّت عنه وطأة العلة، وزايلته بعض أعراض الداء.

وأبطأتُ عنه حيناً، ثم قصدت داره في الضحوة، فلما طرقت الباب طال انتظاري وأنا أسمع هرجاً يمازجه دبيب الخطا تغدو وتروح، وأخيراً فتح الباب عن زوجة "المعلم ياقوت" شعثاء عليها اضطراب، وقالت متلعثمة:

المعلم خرج.

وما لبثتْ أن أغلقت الباب، فوجدتني لحظات لا أريم مكاني، وقد تملكني فضول، وإذا سمعي يتلقط همسات حبيسة تبينت فيها صوت الزوجة تتحدث إلى صوت ليس بالغريب عليّ... وسرعان ما انقطع الهمس، فعجلت أنصرف، متوخياً حانوت "المعلم ياقوت" فألفيت الرجل على بابه يلاطف طفلته، وهي تهدهد عروسها القطنية، فانبريت أسأله:

لماذا جشمت نفسك مشقة الخروج؟ ألا تشفق على نفسك؟

ـ أنا اليوم أحسن حالاً والحمد لله.

فجسست يده أتعرف النبض والحرارة، وقلت له:

حقاً تحسنت صحتك، ولكن لابد أن تحتاط، وحذار من الإسراف على نفسك في العمل... لماذا أراك مصراً على أن تترك صبيك "عنقوداً" وشأنه؟ ألا تجعله يعينك في عملك بعض العون؟

فأجابني ساخر اللهجة:

"عنقود"!... وأين "عنقود"؟ إنه يبدو حيناً ويختفي أحياناً... منذ ثلاثة أيام لم يقع نظري عليه.

فعجبتُ أشد العجب من قوله، وسمعي تعاوده تلك الهمسات التي تسربت إليّ منذ قليل من خلف الباب، حين كنت في بيت "المعلم ياقوت". وهممت أن أصارح الرجل بجلية الأمر، ولكني وجدتني أطرق، وأنا محنق أسيف.

ولبث الرجل يواصل التداوي من علته، بإشرافي عليه، حتى راجعه نشاطه، وأشرقت على وجهه البشاشة والتطلق، فأما "عنقود" فقد انتظم أمره في خدمة معلمه خيراً مما كان من قبل، واستوثقت له إمرة وسلطان. بيد أني ما كنت أراه حتى أعرض عنه، يحدوني اشمئزاز منه، ومقت له.

وأزف الصيف، وحان أن أسافر لقضاء فترة العطلة، فرأيت أن أعود "المعلم ياقوت" مودعاً، وأطلت جلوسي إليه، أرسم له خطة العلاج، ومنهج التمريض، لا آلوه نصحاً وإرشاداً.

وانصرفت عنه، تتبعني دعواته الصالحات يجأر بها إلى الله.

وعدت في مستأنف العام الدراسي أواصل العمل، وقد طال انقطاعي عن العاصمة ثلاثة أشهر. فلما بلغت بيتي ألقيت نظرة على حانوت "المعلم ياقوت" فإذا هو مغلق، فسألت بعض الجيرة في شأنه، فأعلموني أن الرجل طريح فراشه منذ أسبوع، فأزمعت أن أزوره من غدي، ولما أشرفت في الصباح على داره، وافقت "ست الكل" ابنة صديقي تفترش الطوار، على سحنتها كآبة، وبين يديها عروسها القطنية تعبث بها في خمول، فما إن ناديتها حتى هبت إليّ تجري. وما لبثت أن احتضنت ركبتي، وقد أخذها الشهيق، وانخرطت في البكاء، فانحنيت عليها أهدئ من روعها، وأسائلها:

ما بك يا بنية؟ كيف حال أبيك؟

فرفعت إليّ عيناً خضلتها الدموع، وقالت في لهجة المتعجل:

أمي ماتت... أمي ماتت...

وعاودها البكاء.

ولم أملك أن أتكلم، ورجف قلبي رأفة بتلك الصبية في شعورها الحزين، فأخذت بيدها أحاول التلطف بها والتسرية عنها، حتى وقفنا عند حانوت حلواني في حارة قريبة، فاشتريت لها ما يبهج له قلب الطفل الغرير، وقلت للصبية:

هذا كله لك ولعروسك الحلوة...

فأشرق وجه البنية، وصحبتني حتى باب البيت، ثم أخلت يدي من يدها عائدة إلى مكانها على الطوار تفتح لفائف الحلوى وتتذوق.

وصعدت بيت "المعلم ياقوت" أدق بابه، ولبثت فترة أدق، وأخيراً سمعت خفق خطوات زاحفة، تصاحبها سعلة خشنة متمزقة، وفتح الباب عن الرجل يحييني ويرحب بي... ولما دخلت معه، تقدمني باذلاً جهده في حمل مقعد إليّ، وهو يميط بجلبابه الغبار عنه، ويقول:

تفضل يا سيدي بالجلوس، وانتظرني قليلاً أعد لك القهوة.

فأقسمت عليه أن يريح نفسه، وأن يعفيني من قهوته، فجلس على كرسي وطئ بجانبي، وأنا أتفرس فيه، وأتفحص خفيّة أمره، فراعني منه تغير جسيم: لقد جف عوده، وتشابكت تجاعيده، وبدا وجهه كاسفاً عليه زرقة.

وانبرى الرجل يحدثني بأخباره، ما جل منها وما دق، آخذاً بأطراف الأحاديث، وأنا في كل لحظة أتوقع أن يفضي إليّ بما عرفته من طفلته على باب الدار، ولكنه لم يفعل، فلم أجد مفيضاً من أن أقول:

لقيت "ست الكل" بالباب تبكي...

فأظلت وجه الرجل سحابة دكناء، وهمهم متثاقل الكلم:

نعم... على أمها تبكي...

فبادرته أقول:

البقية في حياتك... عجباً... مبلغ علمي أنها لم تكن تشكو مرضاً...

فأجابني جامد اللهجة، وقد أشار بظهر يده إشارة زراية وإهمال:

لقد ماتت... وكفى!

وبدا عليه اهتياج مكبوت، فنهض بغتة كأنه يبغى مخرجاً يتغلب به على أعصابه المستوفزة، ولكنه ما عتم أن تهاوى على كرسيه، فملت عليه أتبين أمره، وأحاول إنعاشه، فألفيته يغطي عينيه بيديه، وقد هيمنت عليه نوبة النشيج.

فقلت له أواسيه:

الصبر يا معلم... إنك رجل... والدنيا لا تدوم لحيّ، ولا يدوم فيها حيّ...

فكفكف الرجل عبراته، وحملق في وجهي متهدج الصوت يقول:

أتراني أبكي عليها؟ أفحسبت أنها ماتت حقاً؟ عليها اللعنة ولا ردها الله.

فأخذتني البهتة وأنا أقول:

ماذا في الأمر إذن؟

ـ لقد كذبتُ على ابنتي، أو قل إني ضحكت منها، فأفهمتها أن أمها ماتت، وحقيقة الأمر أنها حية تسعى على ظهر الأرض...

فسألت الرجل مشدوهاً:

ولم ذلك يا معلم؟

فنكس الرجل رأسه، يعبث بحاشية ثوبه، وقال مستكين الصوت، ذليل النبرات:

لقد هربت... تخلت عن الرجل المريض الذي لم يعد صالحاً لها... مع من كان هربها فيما تظن؟... مع "عنقود"... ربيبي، ذلك الخليع الفاسد الذي لم أستمع لنصحك حين رغبت إليّ في أن أطرده، فأبقيت عليه حناناً ومرحمة!

ـ هكذا الناس أبناء خيانة وغدر... لا تأس على ما كان!

ـ لست بالآسى على نفسي، وإنما أنا حزين من أجل ابنتي، تلك التي أصبحتْ فاقدة أمها، وعما قليل تفقد أباها أيضاً... فترى نفسها يتيمة الأبوين، ولا تجد حولها من ذوي القربى من يبذل لها حنوا ورعاية... ما مصير هذه الصبية من بعدي؟ إني اليوم مريض، وغدا راحل إلى غير عود.

فشددت على يده أقول:

بل ستحيا سعيداً مع ابنتك، فلا تستسلم للوساوس، ولا يسرعن إليك القنوط، واذكر الله... أنت بخير!

فهز رأسه متابعاً قوله، وصوته بالنحيب مشوب:

لا تخدعني عن نفسي يا سيدي... فصحتي تتدهور، ويومي وشيك... أنصت إليّ... أيقظني من نومي البارحة ظمأ، فلم أشأ أن أزعج ابنتي من رقادها لتجلب لي الماء، واستنجدت بقوتي، وحاولت جهدي، حتى استطعت أن أغادر فراشي، وما كدت أتحامل على السير حتى تهاويت، ودارت الأرض بي، فقر في نفسي أني قد استوفيت من الدنيا نصيبي المقسوم.

وطأطأ الرجل، كابي الوجه، مهدم الكيان، وإذا نحن نسمع جلبة بالباب، ونرى "ست الكل" مقبلة تتواثب، وفي يدها بقية من الحلوى.

وتدانت الصبية من أبيها تلقمه من حلوائها، فضاء وجه الرجل، والتفّت ذراعه بخصرها في حنو واهتياج.

تتابعت بعد ذلك أيام شغلت فيها بشأني، وحل يوم الجمعة، فذكرت صاحبي، وواعدت نفسي أن أزوره في الأصيل.

وبينما أنا جالس أترشف من قدح القهوة، بعد أن أُصبت فطوري، وأمامي رزمة الصحف أتناولها وأعبر ما فيها على تعجل

ـ إذ بي أسمع نقرات خفافاً بالباب، فقلت:

من؟

فأجابني صوت هين رفيق يقول:

أنا... أنا... افتح.

فنهضت إلى الباب، فدخلت الصغيرة ساهمة واجمة، تدعك أصابعها في قلق، وعيناها تائهتان، فأمررت يدي على شعرها ألاطفها وأقول:

أهلاً "ست الكل"... ما بك يا صبية؟

فتشبثت بذراعي مهمهمة تقول:

أنا خائفة... أنا خائفة...

ـ مم تخافين؟ وهل تخافين بالنهار؟

فسمت بنظرها إليّ متوسلة، وجذبتني مشيرة إلى الباب تقول:

تعال معي إلى المنزل... تعال معي...

ـ لماذا؟ كيف حال أبيك؟

ـ هو في البيت نائم... تعال معي... أنا خائفة!

واشتدت في اجتذابي إليها لأخرج معها، فلم أجد مندوحة من مطاوعتها، والأفكار في رأسي تتضارب.

وفي أثناء الطريق استرسلت "ست الكل" تروي قصتها... قالت:

في الليل وأنا في نومي، علا صوت لا أعرفه، ففزعت وانكمشت. ولما سكن الصوت جعلت أنادي أبي من تحت غطائي، فلم يستيقظ، وما استطعت بعد ذلك أن أنام، فتسللت مغمضة عيني إلى فراش أبي، ونمت بجانبه متعلقة برقبته، وما زلت نائمة حتى استيقظت في الصباح، ولكن أبي ظل مستغرقاً في منامه، فناديته، ثم هززته، ولكنه أبى أن يصحو...

فخفت، فتركت البيت، فجئتك... لتمضي إلى المنزل معي، نوقظ أبي...

فذهب بي الظن في شأن الرجل كل مذهب، ومضيت مع الصبية، حتى دخلت على أبيها في حجرته، فرأيته في فراشه شديد الامتقاع، فجعلت أتفحصه، وما لبثت أن نظرت إليّ "ست الكل" آخذاً بيدها إلى الباب، قائلاً لها وقد أعطيتها بعض النقود:

اذهبي إلى بائع الحلوى، فاشتري منه ما يروقك، وانتظريني هناك، حتى أوقظ أباك...

وتواثبت على الدرج هابطة.

وبعد وقت اتخذت فيه ما يقتضيه الموقف من إجراء، قصدت الحارة القريبة أطلب "ست الكل" عند الحلواني، فوجدتها في لمة من الأطفال تزهو عليهم بما تحمل من أنواع الحلوى، وهي تمنح بعضاً من أترابها وتعرض عن بعض. فناديتها:

تعالي يا "ست الكل"...

فأقبلت عليّ، فهششت لها، وأمسكت بيدها أسير بها وأنا أقول:

أتحبينني يا "ست الكل"...

فاشرأبت تقول بملء فيها:

جداً يا أفندي جداً...

ـ كما أحبك؟..

ـ أكثر يا أفندي.

ـ فلنذهب إذن إلى داري، ولتمكثي فيها معي...

ـ وأبي؟

ـ سيرجع بعد قليل... لقد سافر...

فصاحت في دهشة:

سافر؟ هل استيقظ؟

ـ استيقظ وسافر على عجل، لأمر مهم، وإنه لعائد إليك محملاً باللعب والحلوى.

ـ وهل يغيب؟

ـ أياماً قلائل... ستمكثين معي... ألا تحبين ذلك؟

فبدا عليها مظهر من التخاجل والاستحياء، فبادرتها أقول:

اتفقنا... قبليني إذن!

وانحنيت إليها، فأرسلت على خدي قبلة ساذجة، وتركتني تسبقني بخطوات سراع، فتبعتها بنظراتي، وصدري تجيش فيه أشتاتُ المشاعر، وما لبثتُ أن أخرجت منديلي أمسح به دمعة طافرة!

الأمل المنشود...

شدّ ما حزن الفتى "سويلم" حين استأثرت المنية بأبيه الشيخ "نوار"...

لقد فقد فيه مثلاً عالياً للأبوة، وطرازاً رفيعاً من التقوى، كما فقد فيه عائلاً عظيماً، وكافلاً كريماً...

كان أبوه يؤم الناس في مسجد بلدة "الدهارشة"، ظل في منصب الإمامة زهاء ثلاثين سنة، مشهوداً له بنقاء السريرة، وصدق الورع، وحب الخير للناس، وأخلص له الأهلون، حتى قبضه الله إليه، وهو يحبو إلى الثمانين.

ولم يكن للشيخ "نوار" من الذرية إلا ولده "سويلم" فقد تخطف الموت سائر أبنائه من قبله، وعاش له أخيراً ذلك الغلام الذي وهبه الله إياه على الكبر، فكان لعينه قرة، يبالغ في التعهد له، حتى ليخشى مرّ النسيم عليه.

ولكن القدر أبى إلا أن يداعب الرجل في فلذة كبده مداعبة ثقلت وطأتها عليه، فقد أصيب الغلام في فجر صباه بمرض عنيف، ظل ينتابه حتى زلزل أركانه، وهدّ كيانه. ولم يبارح جسمه إلا بعد أن أحاله حطاماً تزدريه الحياة، فعاش "سويلم" كأنه هيكل بشري، لا إنسان سويّ.. عينان غائرتان، ووجه مأكول، وقامة أشبه ما تكون بعود يابس يوشك أن ينقصف.

وبلغ الغلام الحلم، فوجد الشيخ "نوار" نفسه يفكر في مستقبل ولده، على أي نحو يكون؟ وأية وجهة يسلك؟ فلم ير إلا أن يعده "للأزهر"، لكي يكون فيه شيخاً من رجاله الأعلام.

ولبث الأب يقرئ ابنه كتاب الله، ويتولى تلقينه مبادئ العلم، وبسائط الدين، ويأخذه بتعاليم الشرع، ويبث في نفسه نزعة العقيدة وروح الإيمان، وقد كان يغلو في ذلك ويبالغ، حتى صرف الغلام عن شئون دنياه، فلم تعد له خبرة بوسائل العيش، ولم تبق له طاقة بالكدح في سبيل الكسب والاغتنام.

وكذلك شب "سويلم" لا يفقه من أمور الفلاحة شيئاً، ولا يشارك أباه في القيام على شئون الأفدنة الأربعة التي يمتلكها من أرض الله.

وأبت معقبات المرض أن تزايل جسم الفتى "سويلم" فتمكنت فيه، تجدّد همه، وتحرمه ما في الحياة من لذة ومتاع. حتى إنها جعلته لا يحظى بما حظي به أنداده شباب القرية من زواج.

وكان الفتى يمضي أيامه، لا شغل له إلا حديث الدين، يبشر فيه الصالحين بما يوعدون من نعيم مقيم، ويزهد الناس في هذه الدنيا الحافلة بالأوصاب والآلام، ولا يجد للبشرية في غير الدار الآخرة سعادة ونعمى.

وتقضت تلك الليالي التي جلس فيها الفتى "سويلم" يتقبل تعازي الناس في أبيه، فاعتكف أياماً في حجرته، دائب التفكير في هذا الطارئ المفاجئ، هذا الموت المحتوم...

وتناوحت في رأسه الأفكار والخواطر، تمثل له ما يلقاه الراحلون عن هذه الحياة من ثواب وعقاب. فاطمأنت نفسه بأن أباه قد انتقل إلى بحبوحة من السعادة والأمن، في جنات تجري من تحتها الأنهار.

واضطر الفتى أن يبارح داره ليعالج من شأنه ما يستوجب رعايته، لكنه كان يملأ وقته بالتحدث عن أبيه، فما يكاد يلقى إنساناً حتى يلتمس معه أوهن المناسبات ليتطرق منها إلى تعداد مناقب الشيخ "نوار"، وما كان له من فضل على القرية عظيم.

على أن حاجات العيش كانت تقتضي الفتى "سويلم" أن يبذل لها بعض الجهد، فإذا ألجأته إلى ذلك الضرورة، لم يلبث أن يضيق بأول عقبة تعترضه، فإذا هو يلوذ بالفرار إلى مصطبة الشيخ" مصيلحي"، يقارضه الحديث فيما كان لأبيه من مكرمات، وفيما آثره الله به من رحمة ورضوان.

وحان الموعد الذي يجبى فيه الملاك ما لهم عند المستأجرين، فلم يصب الفتى "سويلم" من إيجار أفدنته الأربعة إلا دنانير معدودات، أنفق معظمها في إقامة حلقات الذكر، ترحماً على فقيد القرية الشيخ "نوار".

وعلى مر الأيام مست حاجة الفتى إلى المال، فأقبل على مستأجري أرضه يتقاضاهم ما بقي في ذمتهم له، فجعلوا يعدونه ويمطلونه، ولا يملون إخلاف مواعيدهم معه، وما زالوا يراوغونه ويداورونه حتى خرج باليأس من المطالبة، واستيقن أن

النـاس مطبوعـون علـى ضـرائب شـر وأذيـة، وأنهـم كـذبـة منـافقون، لا شـرف لهم ولا دين، فـأحسّ خيبـة الأمـل تعمـر مـا بين جنبيه، وبدت له الدنيا ظلمات بعضها فوق بعض، وشـاهت وجـوه النـاس في عينـه، فلـم يعـد يـأنس بهـم أو يـبش لهـم، إلا صـديقه الفقيـه الـورع الشـيخ "مصـيلحي"، فكـان دائـم الـتردد على مصطبته، ينعيان معاً على هذه الدنيا ما حوت من مساوئ وآثام.

ومـرة وهمـا يتنـاقلان حـديثهما المـألوف، في موضـوعهما المعـاد، عـرض الشـيخ "مصـيلحي" لحادثة وقعت في القرية منـذ عهد بعيد، وكان فيها للشيخ "نوار" كرامة لا تنساها القرية وإن تـواترت السـنون، فأنصـت الفتـى لهـذا الحـديث، مـأخوذ النفس، مسحور السمع، حالم النظرات، وإذا هو يغمغم قائلاً:

ترى أين أنت الآن يا أبتاه؟

فحدق فيه الشيخ "مصيلحي" وهـو يخلل لحيته بأصـابعه، ثم قال له:

في الجنة يا بنيّ، مع المتقين الأبرار!

فبدا الفتى في شغف يقول بصوت خافت حنون:

الجنة؟... الجنة؟... ناشدتك اللّه أن تزيدني بها علماً.

فتنحنح الشيخ غير مرة، وانطلق شائق الأسلوب، يفضي بما عنده من وصف الجنة، وما فيها من هناءة ومتاع... ولبث يطنب في بيان ما تحتويه مما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين، فيستمع الفتى لذلك فاغراً فاه، تبرق عيناه، وإذا هو ينفث من صدره تنهيدة جياشة، ولسانه يقول:

من لي بالجنة؟ من لي بها؟

فتبسم الشيخ يجيبه:

إنها لك بعد عمر طويل... أنت الطيّب ابن الطيّب!

فنكس الفتى رأسه، وهو يقول:

أتطلب لي طول العمر في هذه الحياة المشوبة بالشقوة والبأساء؟ ماذا في الدنيا من خير يرجى، أو متعة تنال؟

واستبد بالفتى هذا التفكير، فكان إذا أوى إلى فراشه وملكته عينه، تمثل له أبوه في حلم بهيج، متربعاً على أريكة من ذهب، بسطت عليها الحشايا الوثيرة، ومن حوله ما لذ وطاب من مناعم العيش، وعلى وجهه يتلألأ نور...

فلا يكاد يلمح ابنه، حتى يبتسم له، وكأنه يومئ إليه يدعوه!

واشتد زهد الفتى في الحياة من حوله، فهو لا يطعم إلا ما نزر، ولا يشرك الناس إلا فيما ينوبهم من المآسي والأرزاء. فما كانت تفوته جنازة، ولا كان يعوقه شيء عن حضور مأتم، وأطيب أوقاته ما يمضيه على ربوة القبور!

وكان أحياناً يجد نفسه ضائقاً بمحبسه في البيت، فينطلق إلى الطريق، فرداً يستروح، وإذا به تسوقه الخطا إلى شريط القطار، فلا يفتأ يغدو ويروح، وقد وطن عزمه على أمر مقرر محتوم، يظفر منه براحة الأبد... ويظل الفتى على حاله، سابح النظرات في عباب الأفق، حتى تصك سمعه جلجلة القطار العتيّ في هجمته الخاطفة، فيحس الأرض تحت قدميه قد زلزلت زلزالها، وإذا هو مزعَج قد استيقظ من غفوته، وإذا هو يقفز من مكانه بعيداً عن شريط القطار، كأنما قذفت به يد قاهرة!

وفي الحين بعد الحين، كان يتخذ مجلسه على حافة تلك الساقية المهجورة في أقصى القرية، فيدلى ببصره في مهواها المظلم السحيق، يتبين في قاعها سفينة نجاته من عالم الشرور ودنيا الأوزار. ولا يكاد يميل على شفا البئر، مسلماً جسمانه، حتى يستشعر الرعشة تصدم أوصاله، فلا يلبث أن يرتد، وقد

أخذه الفزع من كل جانب، فيتخذ سبيله إلى بيته كئيباً يثور على نفسه الخوارة وعزمه المهزوم!

وتثاقلت هموم الفتى على كتفه، فإذا نظر إلى داره التي درج فيها وترعرع، لم يجدها إلا سجناً تصفر فيه وحشة وانقباض، وإذا مد عينيه إلى الطريق من حوله تراءت له الدنيا كأنما تنفث في وجهه دخاناً تختنق منه الأنفاس. فأما مجلسه عند الشيخ "مصيلحي" فلم يعد يطيب له، بل إنه أصبح يتبرم بالمسجد حين يحتشد بقصاده من طلاب الصلاة.

وتضاءل نصيب الفتى من دنيا الناس، حتى إنه قصر خطاه على الطريق بين بيته وبين مقبرة أبيه، فهو يقضي بجانب الرمس أطول وقته تائهاً في بيداء خياله، يحاول أن يقاسم روح أبيه ما تنعم به في دار الخلود.

وذات يوم والوقت أصيل، تسلل الفتى "سويلم" من داره، مشتملاً بعباءته البالية، لا تبدو منه إلا عينان تبصان في حيرة واضطراب، وظل الفتى يسير حتى فارق البلدة، فواصل سيره يسأل ويستخبر، وقد أقبل عليه الليل وتغشّاه، وهو ما برح ماضياً في الطريق...

وتوخى الفتى وجهة المستنقع الكبير، حتى أسلمته خطاه إلى خرائب ودمن، فاخترمها ينشد ضالته، إلى أن تراءت له شعاعة تخبو وتلوح، فاستهدى بها حتى أبلغته إلى بيت متهدم، فمثل أمام بابه يحدق فيه.

ولما استيقن أنه لم يضل سبيله، وقف متردداً لحظات، ولكنه أذكى من عزيمته واستجمع، فدفع الباب يحث خطاه في ممشى ضيق، ثم ألفى نفسه بغتة في قاعة ترقّ فيها الظلمة، ولا يفصح فيها الضوء الشحيح إلا عن أشباح غامضة في شبه حلقة، فلم يلبث الفتى أن زكمته ريح غير مألوفة اختنقت منها أنفاسه، فمكث هنيهة يحاول أن يميز هذه الأشباح، وأحس بجسمه تعروه قشعريرة، فعجب من نفسه كيف سولت له قدمه أن يطأ هذه البقعة المريبة، وهم بأن يعود أدراجه، هارباً من ذلك الوكر المرهوب، ولكن صوتاً أجش النبرات، علا يسأله: من أنت؟

وإذا بالفتى يرى وميض العيون يترامى عليه كأنه سهام تضرب حوله الحصار.

ورقيت إلى سمعه همهمة استياء، زادته من خشية ورهب...

واستأنف الصائح يقول:

من أنت؟

فألفى الفتى "سويلم" نفسه يتدانى، وهو يجيب في صوت متهدج:

أريد أن ألقى "عم خفاجة".

فنهض إليه صاحب الصوت، أعجف الوجه، عليه جهامة وقطوب، وجعل يتفرس فيه بعينين غائرتين تحت أهداب غزار، وما هي إلا أن قال له:

فيم سؤالك عن "خفاجة"؟

ـ أريد التحدث معه في شأن خاص... في مهمة خطيرة!

وأمسك الرجل بيد الفتى، وقاده إلى حجرة داخلة، فيها شمعة موقدة تثير في الأرجاء ظلالاً كأنها رؤوس الشياطين... وهناك في ركن من هذه الحجرة يتراءى شبحان يتسارّان في اهتمام، مالبثا أي أن رفعا أعينهما يستوضحان مَن الطارئ. فدفع الرجل بالفتى نحوهما، وهو يقول:

ضيف يطلب "عم خفاجة" في شأن خاص... في مهمة خطيرة!

وما أسرع أن خلت الحجرة، إلا من الفتى "سويلم" وهو جالس قبالة رجل ضئيل الجسم، صلب العود، له عينان تتقدان كعيني النمر، يقول:

أنا "خفاجة"... ماذا أتى بك يا شيخ "سويلم"؟

فارتجف الفتى يغمغم:

وهل عرفتني؟

فأجابه الرجل في صوت لين عطوف:

ومن ذا الذي لا يعرف الشيخ "سويلم"؟ ومن ذا الذي لا يعرف ابن الشيخ "نوار"؟ من دلك على مكاني؟

فاطمأن الفتى شيئاً، ولكن بصره جعل يزيغ في الحجرة، ويتيه.

ثم ابتدأ يقول:

لقد كنت أبحث في الخفاء عن شخص أركن إليه، في مهمة عظيمة، فدللت عليك... ويعلم الله ما لقيت من عناء في سبيل الوصول إليك.

ـ أهلاً بك... أخبرني عن مهمتك.

فصمت الفتى برهة يهم بالكلام ولا يبين، ونظراته تضطرب يمنة ويسرة، فقال له "خفاجة" وهو يربت كتفه:

تكلم... اطمئن إليّ... ما مهمتك؟

فاندفع الفتى يقول في عزم وحزم:

المهمة هي تخليص روح من جسد... ألا أستطيع أن أعول عليك؟

فقال "خفاجة" مدهوشاً:

أتريد إزهاق روح أحد؟

فصاح الفتى من أعماق نفسه يقول:

بل أريد تخليصها من عالم البؤس والشقاء!

ـ لم أفهم مرادك... أوضح!

ـ مسألتي واضحة... عشرون جنيهاً لك جزاء على تخليصك هذه الروح... عشرة مقدمة، ومثلها تنالها ساعة انقضاء المهمة... عشرون جنيهاً... هي كل ما بقي لي، هي كل ما أملك!

ـ عوّل عليّ...

ـ إني مشترط عليك شرطاً.

ـ أي شرط هذا؟

ـ أن تكون الضربة في مقتل، حتى يخر المضروب صريعاً من ساعته!

ـ سيقضي في طرفة عين...

ـ عوفيت يا عم "خفاجة"، هاك الجنيهات العشرة!

وقدّم الفتى إلى الرجل رزمة من أوراق النقد، فأخذها الرجل في غير مبالاة، وقذف بها في جيبه، وسكت "سويلم" قليلاً، وقد اكتسب وجهه سيماء الطمأنينة والاستقرار، وكأن عبئاً قد انزاح عن كتفيه، ثم أخذ يهمهم:

سوف يكون غريمك في بلدة "الدهارشة" مساء غد، وسيمضي بعض وقته في بيتي، ثم يخرج بعد صلاة العشاء بساعة كاملة، متخذاً طريق الجرن القديم، ثم يحيد إلى حقل النخيل... ناحية مهجورة أراها تصلح لإنجاز مهمتك على خير وجه...

ـ لا تحمل للأمر همّاً!

ـ ستكون مع الرجل الجنيهات العشرة المؤخرة... هي حقك الباقي...

فقال "خفاجة" مبتسماً في مداعبة:

هل لك أن تصارحني بجليّة الأمر؟

ـ هذا سرّي لا أبوح به.

ـ شأنك وما تريد.

ـ سترى غريمك وحيداً بلا رفيق، ملثما بعباءته السوداء، راجلاً يحث خطاه.

ـ ما اسمه؟

ـ ستعرفه فيما بعد.

فصمت "خفاجة" حيناً، ثم أقبل على محدثه متقد العينين، قائلاً:

أما إن كانت هناك مكيدة تريد أن تحوكها لي...

فقاطعه الفتى يقول في عزم وتأكيد:

حاشاي أن أفعل!

ـ لئن وقع بي ضرّ لتكونن فريستي... لا تنجو ببدنك مني!

وفي الموعد المضروب، وقد أظلت البلدة ظلمة العشية، خرج من بيت الشيخ "سويلم" شخص وحده، تلفه عباءته،

فتخفى وجهه، وهو ماض في طريق الجرن القديم إلى حقل النخيل...

وما إن قارب الحقل، حتى هم بأن يحث خطاه، فإذا هو قد اضطربت مشيته، واختل اتزانه، ولكنه ما لبث أن اعتدل مندفعاً يوسع الخطا، فلما توسط الحقل برز من خلفه "خفاجة" شاهراً في يده هراوته الصلبة، فأهوى بها على رأسه، فسقط من فوره يترنح، وهو يغمغم:

إلى جنة الرضوان!

المحتوى

التقديم/ فلك حصرية.....5
زامر الحي.....17
مظاهرة.....44
إلى السارق... 67
فاته القطار...!.....86
ست الكل 109
الأمل المنشود... 125

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة -فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكان وسكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
29	جبرا ابراهيم جبرا- عرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمود درويش - مختارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمال أخرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسئلة الثقافة في القدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان في القصة السورية (حضور المكان)-علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصة ليلة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمالي ــ مختارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبير سلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالث وقصص أخرى مختارات قصصية - د. خليفة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
44	انطـــوان تشـــيخوف دراســـات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابـــــــراهيم الجـــرادي -عبـد العزيز المقالح	د. ابـــــراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	2010
45	عبد الله البردونـي قصـائد مختـارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التســعينيات والأنمـــاط الشـــعرية السائدة)	د. ابـــــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
47	مختـارات مـن أدب الخيـال العلمـي العربي - رقم 004 يأمركم	د. طالب عمران	د. طالـــــــب عمران	2011
48	الله والغريـــب مختـــارات شـــعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثـــــائرزين الدين	2011
49	مایاکوفسکي غیمة في سروال	مالك صقور	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
50	ســليمان العيســى- اليــأس : أمــل يستنسخ أوصافه	د. ابـــــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفراتـــي مـــأخوذاً بـــالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابـــــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علـــي جعفـــر العلاق	د. ابـــــراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جـــان جـــاك روســـو المصـــلح الاجتماعي - محمد عطية الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي	د. جميـل صـليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012
58	بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) عام 1968 مدحة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصير - الشاعر القروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثـــــائرزين الدين	2012
65	عبـــد اللطيـــف عقـــل دراســـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة	أ. محمد راتب الحلاق	مالك صقور	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
76	ًصالح العلي ثائراً وشاعراً	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
81	مديح الظل العالي	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
97	الإسلام بين العلم والمدنية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2015
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صقور	2015
100	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
101	الدين والعلم والمال		مالك صقور	2015
102	غاية الحق (أفق التنوير وجماليات السرد)	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
103	في الحياة والأدب	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
104	إن الأدب كان مسؤولاً	مالك صقور	د. نضال الصالح	2016
105	أسرة المرّاش الأدبية في حلب	د. نضال الصالح	عيسى فتوح	2016
106	الجوهر الرجعي للصهيونية	مالك صقور	مالك صقور	2016
107	سريال وقصائد أخرى	د. نـــزار بريـــك هنيدي	د. نضال الصالح	2016
108	حضارة الطين	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
109	ضرورة الفن الجزء الأول	نذير جعفر	مالك صقور	2016
110	ضرورة الفن الجزء الثاني	نذير جعفر	مالك صقور	2016
111	قادة الفكر	فلك حصرية	مالك صقور	2016

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
112	جرائم تركيا في سوريا والعراق والحجاز ولبنان	حكمت إبراهيم هلال	مالك صقور	2016
113	خارج الحريم	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
114	عيسى عصفور (بلاغة البازلت)	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2016
115	رحلة الشام لإبراهيم عبد القادر المازني	د. نزار بني المرجة	د. نضال الصالح	2017
116	(عملاء النفوذ) وتفكيك الاتحاد السوفييتي	د. ناديا خوست	مالك صقور	2017
117	المذابح في أرمينيا	حكمت براهيم هلال	مالك صقور	2017
118	نزاريَّات...أيقونة الحب... والوطن	فلك حصرية	فلك حصرية	2017
119	من ديوان الجرح السوري	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2017
120	الله والفقر	مالك صقور	مالك صقور	2017
121	قسطنطين زريق مفكراً ومؤرخاً	عيسى فتوح	عيسى فتوح	2017
122	جرح الوطن	محمد حديفي	محمد حديفي	2017
123	فن القصة والمقامة	نذير جعفر	مالك صقور	2017
124	فلاسفة الحكم في العصر الحديث	فلك حصرية	مالك صقور	2017
125	أشعب ملك الطفيليين	فلك حصرية	مالك صقور	2017
126	فيلسوف الفريكة	د. خلف الجراد	مالك صقور	2017
127	الخيال الشعري عند العرب	فلك حصرية	مالك صقور	2018
128	قميص الصوف وقصص أخرى	مالك صقور	فلك حصرية	2018
129	أيقونات	فلك حصرية	فلك حصرية	2018

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
130	الحياة في الظل	صالح سميا	صالح سميا	2018
131	سيد هارتا	فلك حصرية	مالك صقور	2018
132	وجوه الراحلين	د. بديع السيد اللحام	مالك صقور	2018
133	خصام ونقد	مالك صقور	صبحي سعيد	2018
134	أصوات شعرية من الجزيرة السورية	د. نضال الصالح	علي جمعة الكعود	2018
135	أفاعي الفردوس	حكمت إبراهيم هلال	مالك صقور	2018
136	اعترافات شبابي	فلك حصرية	مالك صقور	2018
137	فن القصة لقصيرة	فلك حصرية	مالك صقور	2018
138	شواعر العرب وعظمة الشاعرية	فلك حصرية	مالك صقور	2018
139	عبقرية العرب في العلم والفلسفة	بديع السيد اللحام	مالك صقور	2019
140	علمتني الحياة	فلك حصرية	مالك صقور	2019
141	البطولة في الشعر العربي	فلك حصرية	مالك صقور	2019
142	الأدب في حضرة الجليل	فلك حصرية	مالك صقور	2019
143	وحيداً وَسط السّهب العاري	د. ناديا خوست	د. ثائر زين الدين	2019
144	نيران تحت عرش الطاووس	فلك حصرية	مالك صقور	2019
145	شعر ميسلون	صبحي سعيد قضيماتي	غسان كلاس	2019
146	الشجرة التي غرستها أمي	نزار بني المرجة	نزار بني المرجة	2019
147	الأندلس في التاريخ	أ.د. علي دياب	أ.د. علي دياب	2019
148	المرأة في شعر البحتري	فلك حصرية	مالك صقور	2019